الحبيب السالمي

www.mlazna.com
^RAYAHEEN^

دار الآداب

رواية

نساء البساتين

رواية تقارب عالم أسرة متواضعة في أحد أحياء مدينة تونس وهي تدبّر أمر عيشها اليوميّ. من هذا العالم الصغير الذي تمتلك فيه المرأة حضورًا قويًّا، تنفتح الرواية على عالم أكثر رحابة وثراء وتعقيدًا تتجلّى فيه تناقضاتُ الذات التونسيّة والعربيّة عمومًا وهشاشتها وشروخها في مجتمع يتأرجح بين تقاليد دينيّة ثقيلة وحداثة مربكة.

الحبيب السالمي روائي تونسي. صدرتْ له عدّة روايات، من بينها عشاق بيّة، وأسرار عبد الله، وروائح ماري كلير، الصادرة عن دار الآداب. أختيرت رواية روائح ماري كلير، ضمن القائمة القصيرة للجائزة العالميّة للرواية العربيّة (البوكر العربيّة). تُرجمتْ رواياته إلى لغات أجنبية عديدة.

دار الآداب
هاتف ٨٠٣٧٧٨ - ٨٦١٦٣٣
ص ب ٤١٢٣-١١ بيروت

تصميم الغلاف: نجاح طاهر

www.mlazna.com-RAYAHEEN

-١-

لا شيء تغيَّر في حديقة العمارات سوى أنَّ النباتات كبرت واستطالت، وأنَّ أشجار السرو والدفلى صارت سامقة وارفة.

وجدتها بسرعة ودونما عناء، رغم المباني التي تكاثرت كنبات الفطر في حيِّ البساتين؛ فهي تقع في شارع أبي القاسم الشابي الرئيسي بالقرب من مركز الشرطة الذي لا يمكن أن تخطئه العين حتى في الليل.

يخترق الحديقة ممرٌ طويل مرصوف بالحجارة، تتفرَّع عنه عدَّة ممرَّات ضيِّقة قصيرة تفضي إلى العمارات المتناثرة في الحديقة. أعبره وأنا أجرجر حقيبتي الثقيلة، متحاشياً ما كان يظهر لي على ضوء فانوس الشارع من حفر وقطط تتنقَّل بين النفايات وبقايا الطعام التي ألقى بها السكّان في الممرّ. لا أهتدي إلى زرّ الكهرباء في مدخل العمارة التي يقيم فيها أخي إبراهيم، فأتسلَّق الدرج المظلم بحذر. ليس هناك سوى أربعة طوابق، وشقَّة أخي تقع في الطابق الأخير فهو لا يحتمل أن

www.mlazna.com-RAYAHEEN

يسكن في أيّ واحد من الطوابق الأخرى؛ إذ إنّ مجرّد التفكير في أنّ رجالاً ونساء يأكلون وينامون ويستحمّون ويتضاجعون ويبولون ويتغوّطون فوق رأسه كما يقول يعذّبه وينغّص حياته.

يعانقني إبراهيم عناقًا طويلاً حارًا. إنّه أقرب كلّ إخوتي إلى نفسي بحكم تقاربنا في العمر؛ فأنا أكبره بعام واحد فقط.. أمّا زوجته يسرى فهي لا تقبّلني خلافًا للعادة. تمدّ لي يدها وهي تتراجع بجذعها إلى الخلف، بل إنّها بالكاد تصافحني. ولا أفهم هذا التصرّف الغريب إلاّ عندما ينحني عليّ إبراهيم ويقول:

ـ شوف.. يسرى تحجّبت..

يضيف كمن يتبرّأ من تهمة خطيرة:

ـ هي التي قرّرت أن تتحجّب.. أنا لا دخل لي في الموضوع..

تقول يسرى وهي تحني رأسها:

ـ من مدّة وأنا أنوي أن ألبس الحجاب.. ربّي سبحانه وتعالى فتح عليّ أخيرًا..

يندفع وائل ابنهما الوحيد نحوي ويرتمي في أحضاني. لم أكن أتوقّع أن أراه في مثل تلك الساعة المتأخّرة، فاليوم التالي ليس يوم عطلة. يقول لي إبراهيم إنّ وائل أصرّ على أن يبقى يقظًا حتى وصولي لا ليسلّم عليّ ويرى عمّه الذي سمع عنه الكثير فحسب، وإنّما ليعرف أيضًا ماذا جلبت له من هدايا، فيسرى لم تكفّ عن الحديث عن الهدايا منذ أن علمت بأنّي سأزورهما.

أقدّم له علبة الشوكلاطة التي اشتريتها له من السوق الحرّة في مطار أورلي، للتخلّص ممّا تبقّى في جيبي من قطع نقديّة. تعلّق يسرى بأنّها تعرف جيّدًا هذا النوع من علب الشوكلاطة، وأنّ الكثير من جيرانهم يشترونها لأطفالهم من السوبرماركت الفرنسي «كارفور» الذي فتح أبوابه قبل عامين في تونس، ملمّحة بذلك إلى أنّ الهديّة ليست ثمينة، وأنّها لا ترقى بأيّ حال من الأحوال إلى ما كان من المفروض أن يجلبه رجل مثلي يعيش في فرنسا بعد غيبة طويلة للابن الوحيد لأقرب أخ إلى نفسه.

من حسن حظّي أنّي اشتريت أشياء أخرى لوائل. وعلى أيّ حال لم أكن أعتبر علبة الشوكلاطة هذه هديّة. ودفعًا لكلّ سوء تفاهم أسارع إلى القول، قبل أن نجلس حول المائدة العامرة بأطباق تعرف يسرى أنّي أفضّلها على غيرها، بأنّي جلبت هديّتين لوائل. أطلب من إبراهيم أن يأتيني بالحقيبة على الفور. أفتحها وأخرج كيس بلاستيك أسلّمه لوائل الذي كان يتابع المشهد بعينين متألّقتين. يدسّ فيه يديه بسرعة ويخرج السروال والقميص اللذين اشتريتهما له ويقدّمهما ليسرى كما لو أنّ الهديّة ليست له وإنّما لأمّه.

القميص بنّيّ والسروال أزرق فاتح، وقماشهما من نوعيّة فاخرة. زوجتي كاترين هي التي اختارتهما. أصررت على أن تكون معي عندما اشتريتهما لأنّي أثق في ذوقها خصوصًا في كلّ ما يتعلّق بالأطفال. كنت على يقين من أنّ يسرى وإبراهيم سيُعجبان بهما. لكنّي كنت متخوّفًا من ألاّ يكونا على مقاس وائل، فأنا لم أره منذ خمسة أعوام كما أنّي لم أعد أذكر كم كان عمره بالضبط عندما شاهدته آخر مرّة.

www.mlazna.com-RAYAHEEN

تسوّي يسرى حجابها. ثم تمسك القميص بيد والسروال باليد الأخرى وتشرع في التطلُّع إليهما دون أن تنبس بكلمة. أدرك عندئذ أنّي أخطات في المقاس وأنّهما أكبر منه بكثير. يقول إبراهيم:

ـ سيلبسهما في الصيف القادم..

يضيف بعد لحظة لكي يخفّف من إحساسي بالحرج:

ـ القميص حلو.. والسروال أحلى منه.. ما ثمّة شيء أحسن من ملابس فرانسا وإيطاليا!..

تهزّ يسرى رأسها. من الواضح أنّها أُعجبت بالملابس. لكنّها انزعجت لانّ ابنها لا يستطيع أن يرتديها الآن. عليه أن ينتظر عامًا كاملاً. إنّها تحبّ، مثل أغلب النساء في حيّ البساتين، التباهي أمام الآخرين. وهي تريد أن يرتدي وائل منذ صباح الغد وحالما يستيقظ من النوم ثيابه الجديدة ليراه القاصي والداني في الحيّ، ويعلم الجميع أنّ عمّه الذي يعيش في الخارج جلب له هدايا ثمينة.

أقول متظاهراً بأنّي لم ألاحظ أيّ شيء:

ـ كاترين هي التي اختارتهما..

يقول إبراهيم وهو يتحسّس قماش القميص:

ـ تبارك اللّه.. عندها ذوق.. عرفت كيف تختار..

تعيد يسرى الملابس إلى الكيس بعد أن طوتها بعناية. ثم تغادر الصالون مصطحبة وائل إلى فراشه. يعمّ المكان صمت ثقيل. في العادة لا أتوقّف عن الكلام حين ألتقي بإبراهيم بعد غياب طويل. أمطره بوابل

من الأسئلة. الشغل. ظروف المعيشة. علاقاته بإخوتنا وزوجاتهم وبأخواتنا وأزواجهنّ. صلاته بباقي أفراد العائلة القريبين والبعيدين، سواء الذين لا يزالون يقيمون في مجاز الباب حيث ولدنا جميعًا أو أولئك الذين نزحوا إلى باجة. وحين أملّ من الأسئلة أمازحه أو أذكّره بقصص قديمة لكي نضحك. لكن هذه المرّة لا أشعر بأيّ رغبة في الكلام. كنت أعرف أنّ يسرى من هذا النوع من النساء اللاتي لا ينال المرء رضاهنّ بيسر، خصوصًا إذا تعلّق الأمر بهدايا الخارج. وهي لا تتردّد في إبداء الملاحظات حول ما يقدّم إليها. كنت على يقين أيضًا من أنّها تكنّ لي محبّة خاصّة وأنّها تبتهج حقًّا عندما أزورهما. لكنّي أعترف بأنّي فوجئت بسلوكها هذه المرّة. لم أكن أتوقّع على الإطلاق أن تتصرّف على هذا النحو وأن تنزعج لسبب تافه كهذا.

يفطن إبراهيم إلى أنّي غير مرتاح، فيسألني عن ظروف الرحلة والساعة التي أقلعت فيها الطائرة من مطار أورلي والوقت الذي أمضته في قطع المسافة بين باريس وتونس. كان واضحًا أنّه يسعى إلى دفعي إلى الكلام. وحين أجيبه باقتضاب شديد ينهض ويقول وهو يفتح التلفزيون:

ـ بعد قليل.. نشرة الأخبار..

وحالما نشرع في الاستماع إلى الخبر الأوّل تعود يسرى إلى الصالون. تتطلّع قليلاً إلى التلفزة. ثم تقول بمزيج من التبرّم والامتعاض:

ـ تعبنا من هذا الكلام الفارغ.. أغلق التلفزة..

تضيف وهي تشير بيدها إلى المائدة:

ـ على أيّ حال سنتعشّى الآن.. العشاء برد..

بعد العشاء وترشّف الكأس الأولى من الشاي الأخضر بالنعناع الذي أصرّت يسرى على أن تعدّه لي، رغم أنّي لم أكن متحمّسًا لشربه في مثل ذلك الوقت المتأخّر، أنتبه إلى أنّي تركت حقيبتي على الأرض مفتوحة. أتذكّر عندئذ الهدايا الأخرى التي جلبتها معي ليسرى وإبراهيم ونسيتها في غمرة الحديث عن هدايا وائل. في العادة عندما أصل إلى بيتهما في الليل لا أقدّم لهما الهدايا إلاّ في صباح اليوم التالي. هذه المرّة تستولي عليّ رغبة قويّة في القيام بذلك قبل أن نخلد إلى النوم.

أردت أن أتخلّص دفعة واحدة وبأقصى سرعة ممكنة من مشكلة الهدايا. وددت أيضًا أن أنسيهما ما حدث منذ حين بسبب ثياب وائل وأنْ أكفّر بشكل ما عن الخطأ الذي ارتكبته.

أتنفّس الصعداء ويغمرني ابتهاج عميق حين تعجب يسرى إعجابًا شديدًا بهديّتها وهي عبارة عن بلوزة من الحرير. لمّا طلبت من كاترين أن تشتري لها ثيابًا من نوعيّة ممتازة لم أكن أعرف أنّها تحجّبت. كانت البلوزة قصيرة الأكمام وشفّافة عند الصدر. تعيدها إلى علبة الكرتون وتقول لي:

ـ يكثّر خيرك..

يسألها إبراهيم باستغراب:

ـ تتحجّبين.. وتلبسين هذه البلوزة؟

تردّ وهي تضحك:

ـ وما المشكلة؟.. سألبسها في البيت لمّا نكون وحدنا.. ولمّا أخرج ألبس السفساري فوقها.. هكذا ما يشوفها أيّ واحد..

ـ بلوزة كهذه لا بدّ أن يراها الناس.. وإلاّ فما الفائدة من لبسها؟..

تقول بشيء من الغنج والدلال:

ـ تشوفها أنت..

يمسك إبراهيم بالقميص الذي أهديته له ويقول:

ـ أنا سألبسه غدًا.. قميص حلو من باريس كهذا.. لازم يشوفه كلّ الذين معي في الإدارة..

بعد لحظة يلتفت إليّ ويقول:

ـ الآن في تونس.. تجد كلّ شيء مع الحجاب..

تحدّق فيه يسرى بعينيها السوداوين الواسعتين ثم تسأله وهي تبتسم:

ـ ماذا تقصد؟

أتفاجأ بسؤالها. كنت أتصوّر أنّها ستلتزم الصمت الآن وقد تحجّبت. لكن ها هي تتكلّم بجرأة ودون حرج كما عرفتها دائمًا. ها هي على ما يبدو تحافظ، رغم التغيير الذى طرأ على مظهرها الخارجي، على ما أعتبره ميزة لديها تجعلني أرتاح إليها وأرغب في الخوض معها أحيانًا في موضوع النساء بشيء من الصراحة، خلافًا لكلّ زوجات

www.mlazna.com-RAYAHEEN

إخوتي الآخرين اللاتي لا يتجاوز الحديث معهنّ أبداً حدود الادب والمجاملات..

ـ أقصد أنَّ التونسيّة تتحجّب.. لكنّها لا تترك الجينز الضيّق..

ـ ولماذا تريدها أن تترك الجينز؟.. المهمّ أن تلبس فوقه ثيابًا واسعة..

ـ والميني؟..

ـ ما الفرق بين الميني والجينز؟.. المهمّ أن تكون المرأة مستورة أمام الرجال..

يسكت إبراهيم قليلاً ثم يضيف بنبرة ساخرة:

ـ والحكاية لا تتوقّف عند هذا الحدّ.. سمعت أنَّ بعض المحجّبات يلبسن السترينغ..

تفلت من يسرى ضحكة عالية. يضحك إبراهيم بدوره ويقول:

ـ تصوَّر.. حجاب من فوق.. وسترينغ من تحت!..

يستدير إليّ إبراهيم ويثبّت بصره عليّ، لعلّني أبدي رأيًا في المسألة. لكنّي لا أقول شيئًا. تقول يسرى وهي تتوجّه إلى المطبخ بالصحون والأواني وما تبقّى من الطعام:

ـ اللّه يغفر للجميع.. يا ربّي يا رحيم..

حين تفرغ من تنظيف المائدة تحدق في وجهي، فأنتبه آنذاك إلى أنَّ عينيها مكحّلتان.

ـ يظهر أنّك تعبان..

تقول وهي تتثاءب. ينهض إبراهيم. يتثاءب بدوره. ثم يميل عليّ:

ـ يسرى حضّرت لك بيت نومنا.. ستنام فيها..

كنت على يقين من أنّهما سيقترحان عليّ غرفتهما كما فعلا في المرّات السابقة. أرفض على الفور وأقول بنبرة حاسمة:

ـ سأنام هنا..

تقول يسرى باستغراب:

ـ أين هنا؟.. على الكنبة؟..

ـ آ.. على الكنبة.. ولن أغيّر رأيي..

كانا يعرفان أنّي عنيد، وأنّي حين أتّخذ قراراً لن أتخلّى عنه مهما فعلا، خصوصاً إذا تعلّق الأمر بمسائل من هذا النوع.

يتطلّعان واحدهما إلى الآخر. ولا ينبسان بكلمة.

- ٢ -

أحبّ الجلوس في المطبخ. أحسّ بمتعة وأنا أراقب يسرى تنتقل بين طناجرها وقدورها ومقاليها التي تتصاعد منها الأبخرة، أو تقشّر الخضروات، أو تقطّع اللحم أو تغسل الأواني. في كلّ زيارة أحرص على أن أقضي جزءاً من الصباح كلّ يوم في المطبخ. يسرى سعيدة كالعادة بوجودي معها. بين الفينة والأخرى تنظر إليّ وتبتسم أو تسألني إن كنت في حاجة إلى شيء ما.

فجأة يُفتح باب الشقّة ويدخل إبراهيم. كان من المفروض أن يكون في مكان عمله في مثل ذلك الوقت. أسأله وأنا أتطلّع إلى الساعة المعلّقة على الحائط:

ـ ماذا تفعل هنا؟

اليوم هو الجمعة.. ويوم الجمعة يتركوننا نخرج قبل الوقت..

ـ ولماذا ؟..

تقول يسرى بشيء من الاستغراب :

ـ لا تعرف لماذا؟ . . للذهاب إلى الجامع . .

يدخل إلى غرفة الاستحمام للوضوء. وعندما يعود يجلس قبالتي ويسألني :

ـ أتيتني بالسجائر التي طلبتها في آخر جواب بعثته لك؟ . .

أتذكّر أنّني اشتريت له رزمتين من علب سجائر مارلبورو التي يحبّها. إلاّ أنّي نسيت أن أسلّمهما له البارحة. أنهض فوراً لآتي بهما. يزيل غطاء إحدى الرزمتين بعد أن يتحسّسها بإعجاب. ثم يفتح علبة. يتناول منها سيجارة. ويشرع في تدخينها باستمتاع واضح. تقول يسرى:

ـ تدخّن بعد الوضوء! . .

ـ آ . . وما المشكلة؟ . .

ـ سمعت أنّ الدخان ينقض الوضوء . .

يبتسم ابتسامة ساخرة ويقول لي :

ـ نسيت أن أطلب إليك في الجواب أن تشتري من السوق الحرّة زجاجة ويسكي . .

كنت أعرف أنّه يحبّ الخمر. وقد حاول عدّة مرّات التوقّف عن شربها بعد أن تزوّج وخصوصاً بعد أن بدأ يصلّي ولم يستطع. بيد أنّ ما فاجأني هو أن يقول هذا في وقت يستعدّ فيه للذهاب إلى الجامع وبحضور يسرى التي لا تتوقّف عن حثّه على ترك الخمر.

ـ أستغفر اللّه العظيم . .

تقول يسرى وهي تتفرّس في وجهه.

ـ لا تخافي . . الويسكي ليس لي . . وإنّما لواحد من أصحابي . .

حين ينتهي من التدخين يغسل يديه بالصابون ويمضمض فمه طويلاً. وقبل أن يعود إلى مكانه يلقي نظرة سريعة على الشارع.

ـ وائل ما خرج إلى حدّ الآن من المدرسة . .

تقع المدرسة خلف مركز الشرطة. أمدّ رأسي وأتطلّع بدوري إلى الشارع وأقول :

ـ المدرسة قريبة . . وعنده ما يكفي من الوقت ليتغدّى على راحته . . قبل أن يرجع إلى المدرسة . .

ـ لكن قبل الغداء . . سيذهب معي إلى الجامع . .

ـ الجامع؟ . . لماذا؟ . .

تقول يسرى:

ـ ليصلّي معه صلاة الجمعة . . . ما ثمّة شيء في هذه الدنيا يحبّه مثل صلاة الجمعة مع الرجال . .

أتطلّع إليها مندهشاً. وبينما كنت على وشك أن أقول لها إنّ وائل ما زال صغيراً جدّاً على مثل هذه الأمور، تواصل وهي تقترب منّي كما لو أنّها تريد أن تخفّف عنّي أثر المفاجأة:

ـ ما أجبره أيّ واحد على الصلاة . . واللّه العظيم . . هذا الولد ملائكة . . اللّه فتح عليه من صغره . .

يهزّ إبراهيم رأسه عدّة مرّات للتصديق على كلامها. ثم يقول بإعجاب:

www.mlazna.com-RAYAHEEN

ـ لو تراه وهو يصلّي! . . لو تراه وهو يرفع يديه الصغيرتين للتكبير! . .

تقول يسرى:

ـ تمنّيت لو كنت رجلاً . . لأدخل بيت الصلاة مع الرجال . . وأشوفه يصلّي . .

حالما يأتي وائل تساعده أمّه على الوضوء. ثم يصطحبه إبراهيم إلى الجامع. أخرج من المطبخ وأتجوّل قليلاً في الشقّة.

إنّها المرّة الثانية التي أزور فيها أخي منذ انتقاله إليها. تبدو لي أكثر اتّساعًا وسط ضوء الشمس الباهر الذي كان يتدفّق إليها من خلال النوافذ المفتوحة. وحتى الأثاث أجده أفخم وأجمل ممّا بدا لي في الزيارة السابقة.

كان لديّ ما يكفي من الوقت لكي أستقلّ الحافلة إلى مركز المدينة، وأتجوّل قليلاً في شارع الحبيب بورقيبة، ثم أعود إلى حيّ البساتين قبل أن يصبح الغداء جاهزًا. أودّع يسرى التي ألحّت عليّ بألاّ أتأخّر في العودة فالغداء الذي تعدّه هو أوّل وليمة للاحتفال بقدومي إذ إنّ عشاء البارحة لم يكن سوى مقدّمة. ثم أنزل الدرج الرخامي ببطء خوفًا من أن أنزلق، فقد غُسل للتوّ كما يبدو، ولا يزال مبلّلاً في بعض المواضع.

يقع موقف الحافلة مقابل مدخل الجامع الذي لا تفصله سوى بضع مئات من الأمتار عن مركز الشرطة. وهو عبارة عن عمود حديدي ينتصب على رصيف الشارع الأيمن، وقد ثُبّتت عليه صفيحة كُتب عليها رقم الحافلة. هناك سيّدتان وطفل بجانب العمود. حين أتوقّف بالقرب منهم تنظر إليّ السيّدتان كما لو أنّهما تستغربان وجودي في

ذلك المكان في مثل هذا الوقت. لا أهتمّ بذلك. أقول في نفسي لا بدّ أنّهما لاحظتا أنّني لست من الوجوه الأليفة في الحيّ . .

ليس هناك أيّ مقعد للجلوس. أمّا الرصيف الذي يقوم عليه العمود فهو ضيّق وقد تناثرت عليه أوراق وقوارير وعلب كرتونية فارغة. وبالرغم من أنّنا في منتصف الربيع فقد كان الحرّ شديدًا. بعد لحظات قصيرة لم أعد أحتمل أشعّة الشمس. أتطلّع حولي بحثًا عن قليل من الظلّ. لكنّني لا أعثر على شيء، فالشارع يخلو تمامًا من الأشجار والبيوت التي توجد بالقرب من الموقف بلا حدائق. أخلع سترتي وأستند بظهري إلى أحد الجدران.

يتزايد عدد الوافدين على الموقف. أفطن وأنا أنظر إلى وجوههم وأرقب حركاتهم، في انتظار الحافلة التي تأخّر مجيئها، إلى أنّهم كلّهم نساء وأطفال وأنّني الرجل الوحيد بينهم. ألاحظ أيضًا أنّهم يحدّقون فيّ كلّما التقت نظراتنا. بل إنّ أحد الأطفال يستغلّ استغراق أمّه في الحديث مع امرأة أخرى فيقترب منّي. أبتسم له. لا يردّ على ابتسامتي. يحني رأسه ويحملق فيّ بعينين جامدتين. وبعد برهة يتراجع قليلاً. يرفع ذراعه ويرسم في الهواء إشارة لا أفهم مغزاها. ثم يعود إلى أمّه التي لم تنتبه إطلاقًا لما حدث.

كلّ الحافلات التي عبرت كانت تسير في الاتّجاه المعاكس. المحطّة الأخيرة في نهاية الخطّ غير بعيدة. ومع ذلك لم تعد أيّ واحدة منها. بعد لحظات طويلة من الانتظار أتطلّع إلى نهاية الشارع. لكن لا حافلة في الأفق. وعلى أيّ حال حتى وإن قدمت بعد خمس دقائق وهذا مستبعد جدًّا فإنّه لم يعد لديّ ما يكفي من الوقت لكي أفعل ما اعتزمت القيام به.

وخوفًا من أن أتأخّر عن موعد الغداء أقرّر أن أرجئ ذلك إلى الغد. في الحقيقة لم أكن أشعر بالجوع، ولم تكن لديّ أيّ رغبة في الأكل. لكنّي حريص على أن ألبّي رغبة يسرى في أن أكون معهم حول المائدة. وفي اللحظة التي أهمّ فيها بمغادرة الموقف والعودة إلى البيت أتذكّر أن إبراهيم ووائل في الجامع. لقد مضى وقت طويل على وجودهما هناك. ومن المحتمل أن تنتهي الصلاة بعد وقت قصير. أقرّر إذن أن أنتظرهما لنعود معًا إلى البيت. أخترق جمع النساء والأطفال المنتظرين الذين لم يتوقّفوا عن التطلّع إليّ وأتوجّه إلى الجامع. ينبغي أن أكون بالقرب من المدخل حين يخرج المصلّون لكي أراهما. أعبر الطريق. ثم أتوقّف في مكان مظلّل يمكنني منه أن أراقب حركة الخروج.

إبراهيم فخور بوجود جامع كبير في حيّ البساتين. أذكر أنّه أثناء زيارتي السابقة كان يقول لي كلّما مررنا بالجامع بأنّه شُيّد بتبرّعات ذوي البرّ والإحسان من سكّان الحيّ، وأنّ ذلك حدث في السنة نفسها التي بُني فيها مركز الشرطة الذي يعتبره هو الآخر من المعالم البارزة في الحيّ، وأنّ المكان الذي بُني فيه الجامع ومركز الشرطة كان، حسبما يُروى، مزبلة عموميّة ومكبًّا للنفايات تهيم فيه الحمير والماعز والكلاب السائبة.

ليس الجامع كبيراً كما يقول أخي، وهو بسيط في هندسته. لكنّه بديع. وأروع ما فيه هذه المئذنة النحيلة التي ترتفع مخترقة الفضاء مثل سهم. لم أدخله بعد. لكن في بعض الأحيان أقترب كثيراً من المدخل النظيف المبلّط بالرخام الأبيض لأتأمّل صحنه المستطيل وبيت الصلاة المفروش بالحصر والزرابي وأعمدته الرقيقة.

يبدأ المصلّون بالخروج. الرجال من كلّ الأعمار وبينهم أطفال كثيرون. كلّ الذين يمرّون بالقرب منّي يحدّقون فيّ كالنساء اللاتي كنت أنتظر معهنّ الحافلة. وبعضهم يحدجني بنظرات باردة. فجأة، وفيما كنت أتطلّع إليهم بدوري، أدرك سبب ذلك. أفهم أيضًا لماذا كلّ الذين كانوا ينتظرون الحافلة هم نساء وأطفال فقط. كلّ الرجال كانوا داخل الجامع في مثل ذلك الوقت يؤدّون صلاة الجمعة. الرجل الوحيد الذي كان خارج المسجد أثناء الصلاة هو.. أنا!..

أنزعج وينتابني قليل من الخوف وأنا أرى تلك النظرات الحادّة تصوّب إليّ كالسّهام من كلّ جهة. ومن حسن الحظّ أنّ إبراهيم لم يتأخّر في الخروج. حالما يشاهدني وائل يترك أباه ويركض نحوي. كان وجودي أمام مدخل الجامع مفاجأة سارّة له، وهو فخور بنفسه لأنّي رأيته وهو يخرج من الجامع بعد أن صلّى فيه كالكبار. وفي طريق العودة إلى البيت يسألني فجأة:

ـ عمّي توفيق.. أنت مسلم؟..

أهزّ رأسي بالإيجاب. يقول إبراهيم:

ـ ما هذا السؤال؟.. طبعًا.. عمّك توفيق مسلم..

يمسك بيدي ويضغط عليها كأنّه يعتذر عن سؤاله. إلاّ أنّه بعد برهة يسألني ثانية:

ـ لماذا لا تذهب معنا إلى الجامع إذن؟..

لم أتوقّع منه مثل هذا السؤال. أبتسم له ولا أقول شيئًا. يقول له إبراهيم:

ـ عمّك يذهب إلى جامع فرانسا . .

ـ ثمّة جامع في فرانسا؟ . .

يجيبه إبراهيم :

ـ بالطبع . . ثمّة جوامع في كلّ بلاد ربّي . .

ثم يردف مغيّراً مجرى الحديث :

ـ ما زلنا في الربيع والدنيا حارّة . . كيف سيكون الصيف؟ . . سنموت هذا العامَ من الحرّ . .

نسير صامتين إلى أن نصل إلى الحديقة التي توجد فيها العمارات . ثمّة ثلاثة شبّان أمام مدخلها . كانوا مستندين بظهورهم إلى السياج ويتحدّثون بأصوات مرتفعة . يتفرّسون في وجوهنا حين نمرّ بالقرب منهم . عندما نبتعد قليلاً يقول إبراهيم بسخط وتبرّم :

ـ كلّ يوم يقفون في المدخل . . أبناء الكلب . . يراقبون الداخل والخارج . .

حين نبلغ الطابق الثالث ينفتح أحد الأبواب بغتة ويطلّ منه وجه امرأة . ثم ينغلق بسرعة . كنت واثقاً من أنّي أعرف هذا الوجه لكنّي نسيت أين رأيته . أنحني على إبراهيم وأساله عن المرأة بصوت واطئ خوفاً من أن يسمعني وائل .

ـ نسيتها؟ . . نعيمة . .

نعيمة صديقة يسرى السابقة! . . نعيمة المطلّقة المحجّبة كما كنت أسمّيها دائماً! . . لقد تغيّرت كثيراً . . بدا لي خلال اللحظة القصيرة التي

شاهدتها فيها أنّها سمنت وأنّ بشرتها ازدادت بياضاً . . أذكر أنّ يسرى امتدحتها كثيراً لما حدّثتني عنها للمرّة الأولى خلال زيارتي السابقة . قالت لي إنّها امرأة نادرة . . طيّبة، رصينة، مهذّبة، شديدة التديّن .

في تلك الفترة كانت نعيمة تفتح كلّ صباح نوافذ شقّتها التي تقيم فيها وحدها ليستمتع الجيران في العمارة بشريط الابتهالات والمدائح النبويّة الذي تدسّه في مسجّل ضخم مفتوح على آخره . . ذات يوم رأيتها من بعيد وهي تعبر الشارع، فساورني إحساس غامض بأنّ ثمّة شيئاً ما غريباً في تديّنها الشديد الذي كان مثار إعجاب الجميع في العمارة . إلاّ أنّني لم أكشف عن شعوري هذا ليسرى فقد كانت تكنّ لها مودّة عميقة .

وذات يوم لما أخبرتني أنّ جارتها الورعة التّقيّة هذه تعشق السفر إلى الخارج، وخصوصاً إلى أوروبا، وأنّها تقوم بين فترة وأخرى بزيارة إلى إيطاليا تعود على إثرها محمّلة بكلّ ما تشتهيه العين والنفس من ثياب نسائيّة تتاجر بها في حيّ البساتين، لم أستطع أن أمنع نفسي من أن أصارحها بما كنت أحسّ به . قلت لها بوضوح جارتك المحجّبة هذه امرأة فاسدة على الأرجح . انفعلت يسرى ووصفتني بأنّي رجل سيّئ النيّة، كثير الشكوك لا يخاف ربّي ولا عباده . .

ظلّت تدافع عن نعيمة حتى اليوم الذي زارتنا فيه لما علمت أنّي في البيت لتسلّم عليّ كما تزعم . . رأت الكحل الخفيف في عينيها والنظرات التي كانت توجّهها إليّ بين الفينة والأخرى وخصوصاً الطريقة التي كانت تخاطبني بها . كانت يسرى قد أخبرتها بأنّي متزوّج من فرنسيّة، فأنا إذن في رأي نعيمة زوج محتمل إذ إنّ الجميع يعتقد أنّ

www.mlazna.com-RAYAHEEN

التونسي الذي تزوَّج من روميّة لم يقدم على هذا الفعل حبًّا لهذه الروميّة بالطبع، وإنّما لمجرّد الحصول على بطاقة الإقامة وتسوية وضعه القانوني.

وبعد بلوغ هذا الهدف لا يتردَّد في تطليق زوجته في أوّل فرصة تتاح له.. لما شاهدت يسرى كلّ هذا بأمّ العين قالت لي في حضورها إنّي محقّ تمامًا حين شكّكت في صدق إيمانها ونعتها بأنّها فاسدة. طردت نعيمة على الفور. وقطعت علاقتها بها، مضحّية بكلّ ما كانت تجلبه لها من هدايا الخارج.

حالما نصل إلى الشقّة يصف وائل لأمّه بدقّة كلّ ما قام به في الجامع. وحين ينتهي من ذلك يقول وهو ينقل بصره بيني وبين أبيه كأنّه يفشي سرًّا:

- شفنا نعيمة..

- أيّ نعيمة؟

- نعيمة التي تسكن تحتنا..

- وأين رأيتموها؟

يجيبها وائل:

- في بيتها.

- في بيتها!..

يقول إبراهيم موضحًا:

- ليس في بيتها.. لما وصلنا إلى الطابق الثالث انفتح باب بيتها فجأة.. لما رأتنا أغلقته بسرعة.. الحكاية ما دامت أكثر من رمشة عين..

تحرّك يسرى رأسها. ثم تتطلّع إليّ قليلاً قبل أن تبتسم ابتسامة خفيفة.

-٣-

أسير على مهل في شارع الحبيب بورقيبة الذي يخترق مركز المدينة. أنتقل من رصيف إلى آخر متطلّعًا إلى وجوه المارّة وواجهات المحلاّت التجاريّة. حين أشعر بالتعب أدخل المقهى الخارجي لفندق الإنترناسيونال. أبتهج عندما أكتشف أنّه مكيّف الهواء. لم تكن هناك أيّ طاولة شاغرة. أقف أمام الكونتوار في انتظار أن يخلو أحد الأمكنة. ألاحظ أنّ المنتظرين مثلي كثيرون، فأستغرب أن يكون المقهى مزدحمًا إلى هذا الحدّ في مثل ذلك الوقت في يوم ليس بعطلة. ومن حسن حظّي أنّ الذين يجلسون إلى الطاولة التي كانت بجانبي تمامًا ينهضون فجأة ويتركون المكان. أندفع إليها وأرتمي على الكرسي.

النادل الذي جاء لخدمتي تعرّف عليّ فورًا. أنا أيضًا تذكّرته حالما وقعت عليه عيناي؛ فقد كنت أتردّد كثيرًا على المقهى قبل أن أهاجر. يصافحني بحرارة. وحين يعلم أنّي صرت أقيم في فرنسا يهنّئني بذلك.

ثم يخبرني بصوت منخفض وهو يلتفت حوله كأنّه يخشى أن يسمعه أحد أنّه يحلم بالهجرة منذ فترة طويلة.

كنت سعيداً بعثوري على طاولة، خصوصاً أنّ المكان الذي توجد فيه ليس منزوياً، فقد كان باستطاعتي أن أرقب حركة المارّة في شارع يتفرّع عن شارع الحبيب بورقيبة. لكنّ سعادتي هذه لم تدم طويلاً للأسف؛ فبعد دقائق قليلة يتقدّم إليّ شابّ ويستأذنني في الجلوس إلى طاولتي. أتردّد قليلاً. ثم أوافق.. إلاّ أنّ ما أزعجني حقًّا هو أنّ الشابّ ليس وحيداً كما كنت أتصوّر. فبعد برهة يأتي صديق له على ما يبدو ويجلس دون أن يستأذنني. ثم يلحق بهما شابّ آخر بعد لحظات.

هكذا أجد نفسي فجأة بين ثلاثة شبّان لا أعرف أحداً منهم.

كانوا يرتدون ملابس وفق آخر موضة وينتعلون أحذية رياضيّة. أحدهم يعتمر قبّعة بواقية أماميّة. وآخر يضع على عينيه نظّارة سوداء من أحدث طراز. ولثلاثتهم هواتف نقّالة. في البداية يتكلّمون بأصوات منخفضة. لكن شيئًا فشيئًا ترتفع أصواتهم وتتعالى ضحكاتهم وقهقهاتهم. يلتفتون حولهم باستمرار ويبدون ملاحظات عن كلّ ما يشاهدون. وكلّما مرّت امرأة بالقرب منّا يرفعون رؤوسهم ويحدّقون فيها. أنظر عدّة مرّات إلى الشابّ الذي سمحت له بالجلوس ليفهم أنّي غير مرتاح لسلوكهم. لكنّ هذا لا ينفع. أكثر من ذلك أدرك بعد وقت قصير أنّهم يفعلون هذا عمداً لكي أغادر المكان وأترك لهم الطاولة.

أقرّر أن أتجاهل وجودهم وأن أبقى في مكاني. أفتح الجريدة التي اشتريتها منذ حين. وأدفن فيها رأسي. لكن بعد دقائق يتبيّن لي أنّ من

الصعب أن أصمد أمام ملاحظات الشبّان وضحكاتهم وقهقهاتهم التي تزايدت. لم أعد أحتمل أيضًا دخان السجائر الذي ينفثه في اتّجاهي صاحب القبّعة بمتعة ظاهرة. أنهي ما تبقّى من القهوة برشفة واحدة وأقوم.

أتوجّه إلى الكونتوار وأقف في طرفه المقابل لكي أبتعد عنهم قدر الإمكان، وأجول بنظري في المقهى الذي ازداد ازدحاماً.

جلّ الروّاد هم في مقتبل العمر. أغلب النساء كنّ برفقة رجال، وبعضهنّ محجّبات. أمّا الأخريات القليلات اللاتي كنّ معًا فإنّ سلوكهنّ ومظهرهنّ يوحيان بأنّهنّ مثقّفات أو مومسات، خصوصًا أولئك اللاتي كن يدخّنّ بدون أيّ حرج، ولا يتوقّفن عن التطلّع حولهنّ أو التردّد على دورة المياه أو تسوية شعورهنّ المصبوغة بألوان صفراء وكستنائيّة.

ينظر إليّ النادل بقليل من الاستغراب. ثم يتطلّع إلى الطاولة التي كنت جالسًا إليها وقد ارتسمت على شفتيه ابتسامة خفيفة توحي بأنّه أدرك سبب تركي المكان. أدفع له ثمن القهوة. لكن بدلاً من أن ينصرف يقف بجانبي ويحدّثني من جديد عن حلمه بالهجرة. فجأة يميل عليّ ويسألني إن كان باستطاعتي أن أساعده على تحقيق حلمه. كلّ ما أريده منك، يقول لي، هو أن ترسل لي وثيقة رسميّة تلتزم فيها بأن تؤويني في فرنسا. مجرّد وثيقة رسميّة، فبدون هذه الوثيقة لن أستطيع الحصول على فيزا. وبينما كنت أبحث عمّا يمكن أن أقول له ردًّا على هذا الطلب الذي لم أكن أتوقّعه على الإطلاق، يتوجّه إلى طاولة بالقرب من المدخل تجلس إليها امرأتان.

أتطلّع من جديد إلى الزبائن. كان هناك سيّاح أوروبيّون يجلسون إلى طاولة قريبة من دورة المياه. كانوا يراقبون في صمت كلّ ما يحدث حولهم. وكانوا يحتسون البيرة. من عادتي ألاّ أشرب في الصباح أيّ نوع من المشروبات الكحوليّة. لكنّ رغبة في احتساء بيرة باردة مثلهم تملّكتني بغتة. أطلب من النادل الذي كان خلف الكونتوار بيرة. إلاّ أنّه لا يستجيب لطلبي، مؤكّدًا لي أنّ المشروبات الكحوليّة ممنوعة في المقاهي والحانات على التونسيّين والعرب والمسلمين قبل الساعة الواحدة بعد الظهر.

عندما يعود النادل إلى الكونتوار يقول لي وهو يشير إلى الطاولة التي تجلس إليها الامرأتان إنّ بإمكاني إذا أردت أن أجلس هناك، مؤكّدًا لي أنّه تحدّث مع الامرأتين في المسألة، وأنّهما وافقتا على ذلك بعد أن تفحّصتاني مليًّا. كنت على يقين من أنّ الامرأتين عاهرتان. ومع ذلك فقد أعجبتني فكرة الجلوس معهما. بعد تردُّد قصير أحسم أمري وأتوجّه إلى الطاولة بخطى واثقة.

حالما أجلس تسألني إحداهما بلهجة مصريّة عن جنسيّتي. وحين أجيبها بأنّي تونسي تستغربان ذلك، فقد كانتا على يقين من أنّي لبناني أو سوري أو شيء من هذا القبيل. ولمّا تعلمان فيما بعد أنّي أقيم في فرنسا منذ عدّة أعوام تقولان إنّهما لم تخطئا تمامًا لمّا لاحظتا أنّ شكلي لا يشبه شكل التوانسة.

أستدير إلى جهة الشارع لأتابع حركة المارّة والسيّارات معلنًا بذلك أنّي لم أجلس معهما لمراودتهما. ويبدو أنّ سلوكي هذا لم يعجبهما، فأخذتا تتحدّثان بدون أيّ حرج عن المهاجرين الذين

يتصرّفون كالأغنياء عندما يزورون تونس في الصيف. يرتدون ملابس فاخرة. ينفقون بسخاء. يركبون سيّارات جديدة فارهة في حين أنّهم يعيشون كالكلاب في أوروبا. يكنّسون الشوارع. وينظّفون المراحيض العموميّة. ويخدمون العجائز المصابين بأمراض فتّاكة خطيرة. ويقومون بأعمال مهينة.

كان واضحًا أنّهما تسعيان إلى إغاظتي، وربّما إلى دفعي لمغادرة المكان، لمّا تأكّدتا من أنّي لست الصيد الثمين الذي كانتا تتصوّرانه عندما قبلتا أن أجلس معهما. لا أنزعج من ذلك فقد تعوّدت على سماع مثل هذا الكلام الذي يجد التوانسة متعة خاصّة في ترديده. وعلى أيّ حال، لم أكن أنوي الجلوس معهما طويلاً. كلّ ما في الأمر هو أنّي أردت أن أجلس إلى إحدى الطاولات لوقت قصير. لم أشأ أن أغادر المقهى كما لو أنّي مطرود بعد كلّ الذي حدث لي مع الشبّان.

وعندما تدركان أنّ كلّ ما قالتاه لم يؤثّر فيّ تغيّران الأسلوب. تميل عليّ إحداهما وتسألني عن مهنتي. أجيبها بأنّي أستاذ تاريخ وجغرافيا في إحدى الثانويّات في باريس. تتطلّعان إليّ بدهشة كما لو أنّهما لم تصدّقاني، وتنفجران ضاحكتين.

تقول الأخرى إنّي لا أشبه أيّ واحد من كلّ المهاجرين الذين تعرفهم. ثم تقترح عليّ أن نغادر المقهى ونذهب إلى الضاحية الشماليّة للتجوّل في سيدي بوسعيد أو المرسى أو قرطاج، حيث البحر الذي تنتشر على شواطئه الجميلة مقاه ومطاعم وفنادق فاخرة لا يؤمّها سوى السيّاح والأغنياء. أقول لهما إنّي لا أملك سيّارة. تسكتان قليلاً. ثم تعودان إلى الحديث عن المهاجرين باستخفاف وتهكّم.

www.mlazna.com-RAYAHEEN

حين تيأسان تماماً منّي تشرعان في التطلّع حولهما، وتبدلان بين وقت وآخر ملاحظات حول الرجال الذين كانوا يمرّون بالقرب من الطاولة وينظرون إليهما. أغلبها كانت عن أشكالهم وملابسهم ومظهرهم الخارجي. أحياناً تضحكان وهما تميلان على بعضهما البعض أو تتماسك أيديهما. وأحياناً تتهامسان أو تتفوّهان بعبارات بذيئة سوقيّة توحي بأنّهما لا تعبآن على الإطلاق بوجودي.

الغريب أنّي لا أتضايق من ذلك. بل يمكنني ان اقول إنّي كنت أجد قليلاً من المتعة في الاستماع إلى مثل تلك العبارات التي لم أستمع إليها منذ فترة طويلة. أحياناً أنظر بدوري إلى الرجال الذين يمرّون بالقرب منّا؛ بعضهم يشيحون عنّي بوجوههم حين تلتقي نظراتي بنظراتهم ويتوقّفون عن التطلّع إلى العاهرتين. والبعض الآخر يحدّق فيّ بشيء من التحدّي ثم يعود إلى النظر إليهما.

عند مغادرتي المقهى أحيّيهما لكنّهما لا تردّان على تحيّتي. إحداهما تواصل التطلّع إلى ما حولها، متظاهرة بأنّها لم تسمع شيئاً. أمّا الأخرى فتتفرّس في وجهي كأنّها تراني للمرّة الأولى. وعندما أصل إلى المدخل يقترب منّي النادل الذي يحلم بالهجرة. وقبل أن يودّعني يذكّرني بما طلبه منّي منذ حين لتحقيق حلمه، راجياً أن أفكّر في الأمر مليّاً.

يلفحني الهواء الحارّ فأهرع إلى وسط الشارع المخصّص للراجلين تحت الأشجار بحثاً عن قليل من الظلّ.. أصبح الشارع أكثر اتّساعاً وطولاً بعد عمليّة التحديث الهائلة التي خضع لها. العديد من المباني رُمّمت أو هُدمت وأعيد بناؤها. كما أنّ المساحة العريضة من الأرض في

وسطه، المخصّصة للتجوُّل، قد أُعيد تبليطها. إلاّ أنّ الشارع حافظ على تصميمه الذي يميّزه عن كلّ شوارع المدينة. الشيء الوحيد الذي تغيّر فيه حقّاً هو أنّ أكشاك بيع الزهور التي كانت توجد في المساحة المخصّصة للتجوُّل في وسطه قد تمّ نقلها إلى نهاية الشارع. كلّ المقاعد الخشبيّة التي تصطفّ على الجانبين تحت الأشجار كانت محجوزة. بعض الذين كانوا يجلسون عليها سيّاح يرتدون سراويل قصيرة تكشف عن سيقانهم وأجزاء من أفخاذهم. وبعض السائحات كنّ شبه عاريات.

أسير حتى أبلغ نهايته. ثم أعود أدراجي متوجّهاً إلى ساحة برشلونة حيث محطّة الحافلات المتوجّهة إلى حيّ البساتين. وحالما أصل إلى البيت يخبرني إبراهيم بأنّه ينتظرني ليبلغني أمراً مهمّاً وهو أنّه اتّخذ، بالاتّفاق مع يسرى، قراراً لن يتراجعا عنه مهما قلت وفعلت.

ـ من هذه الليلة ستنام في غرفة وائل..

أحاول أن أعترض. لكنّه لا يترك لي أيّ فرصة للكلام.

ـ عيب أن تنام في الصالون على الكنبة.. لا يمكن أن أتركك تفعل هذا.. ماذا سيقول عنّي الجيران لو سمعوا بالصدفة أنّك تنام في الصالون على الكنبة.. كأنّك غريب!..

أسأله في محاولة يائسة لتغيير رأيه:

ـ ووائل؟.. أين سينام؟..

تقول يسرى:

ـ سينام معنا.. وائل صغير.. ووجوده في بيتنا ما فيه أيّ قلق..

يقول إبراهيم:

ـ ما أظنّ أنّك ستبقى معنا عامًا كاملاً . . زياراتك دائمًا قصيرة . .

ـ سأبقى تسعة عشر يومًا . .

تقول يسرى باستغراب :

ـ تسعة عشر يومًا ! . .

ـ آ . . لا يمكن أن أبقى أكثر من هذا . .

تضيف باللهجة نفسها :

ـ تغيب خمسة أعوام . . ثم تجيء لتسعة عشر يومًا ! . . ما هذه العطلة ؟ . . الذين يعملون في الخارج مثلك يأتون كلّ عام . . ويبقون شهرين كاملين . . ومرّات أكثر من شهرين . .

أقبل على مضض . بل ويساورني إحساس خفيف بالذنب تجاه وائل الذي أُرغم على التخلّي عن غرفته . لكن حين أدخل الغرفة فيما بعد وأغلق الباب خلفي يغمرني ارتياح عميق، خصوصًا أنّها تقع في نهاية الممرّ بعيدًا عن المطبخ والصالون .

كان إبراهيم ويسرى قد جهّزا الغرفة لي . وضعا فيها سريرًا لشخص واحد وبالقرب منه طاولة صغيرة عليها أباجورة وأفرغاها من كلّ ما يعود لوائل . الشيء الوحيد الذي تركاه هو رسومه المعلّقة على الجدران .

منذ ذلك اليوم صار لي مكان في الشقّة . مكان لي وحدي . أهرب إليه وأختلي فيه بنفسي . مكان ألتجئ إليه أيضًا كلّما أردت أن أطالع قليلاً، أو حين أملّ الجلوس في الصالون، أو عندما يكون هناك مسلسل مصري أو مكسيكي في التلفزيون أو أيّ شيء آخر من هذه البرامج التي يعشقها إبراهيم ويسرى .

ـ ٤ ـ

النوم يستعصي عليّ . أترك الفراش وأفتح النافذة على مصراعيها . مركز الشرطة مفتوح في مثل تلك الساعة المتأخّرة من الليل . ألاحظ وأنا أثبّت بصري عليه أنّهم غيّروا طريقة الإضاءة في المدخل؛ فقد كان الضوء قويًّا إلى درجة أنّه باستطاعتي أن أرى بوضوح ملصقًا يمثّل شعار حزب «التجمّع الدستوري الديمقراطي» الحاكم على لوح إعلانات ضخم لا تفصله عن المبنى سوى بضعة أمتار .

حيّ البساتين غارق في صمت الليل . شارع أبي القاسم الشابي وكلّ الشوارع الصغيرة المتفرّعة عنه مقفرة . حتى السيّارات التي كنت أسمع هديرها بين الفينة والأخرى قبل أن أفتح النافذة اختفت . أتّكئ على إفريز النافذة وأشرع في تأمّل النجوم الصغيرة المتناثرة في أرجاء السماء الصافية .

بغتة يتناهى إلى سمعي من إحدى شقق العمارة صوت نافذة تُفتح. أنحني وأمدّ رأسي فأراها. كان الضوء المتسرّب من مركز الشرطة كافيًا لكي أتأكّد من أنّها هي. نعيمة المطلّقة المحجّبة. إلاّ أنّ ما يفاجئني حقًّا أنّها غير محجّبة هذه المرّة.

إنّها المرّة الأولى التي أرى فيها شعرها. كان طويلاً ينسدل على كتفيها. كان يبدو لي على ضوء مركز الشرطة ناعمًا رقيقًا أملس، وأجمل بكثير ممّا كنت أتصوّر، خصوصًا أنّها كانت ترتدي فستانًا ينسجم لونه البرتقالي مع لون شعرها الأسود الفاحم.

لا أدري إن كانت قد فطنت إلى أنّي أرقبها. أحدّق في شعرها طويلاً. ثم أزداد انحناء وأتنحنح. ترفع رأسها على الفور. وعندما تراني تتراجع بسرعة وتغلق نافذتها. يعتريني قليل من الاضطراب فأغلق بدوري النافذة وأطفئ الضوء كما لو أنّي أريد أن أحتمي بالظلام وأتستّر به على ما فعلت. أبقى للحظة واقفًا وسط الغرفة. ثم أتمدّد على الفراش.

وحالما أسند رأسي إلى الوسادة تحاصرني التساؤلات من كلّ جهة. ترى بماذا شعرت لما رأتني؟ وهل اضطربت مثلي؟ هل انزعجت وانفعلت أم ساورها إحساس من نوع آخر؟ ولكن قبل كلّ شيء هل عرفتني؟ صحيح أنّها شاهدتني مصادفة قبل يومين مع إبراهيم ووائل في الدرج لـمّا فتحت فجأة باب شقّتها، ولكن لا شيء يثبت أنّها رأتني جيّدًا فقد أغلقت الباب بسرعة. إن شاهدتني بما فيه الكفاية وعرفتني فمن المؤكّد أنّها تذكّرت أنّها التقت بي قبل خمسة أعوام في شقّة أخي، وأنّ يسرى طردتها أمامي من البيت لما اقتنعت بأنّها امرأة فاسدة كما كنت أقول لها.

أحاول أن أحرّر ذهني من كلّ هذه الأسئلة لكنّي لا أستطيع. أكثر من هذا أجدني أترك الفراش من جديد مدفوعًا برغبة لا تقاوم وأتوجّه إلى النافذة لأفتحها مرّة أخرى. أندهش حين أراها. كانت تتّكئ على إفريز النافذة كما في المرّة السابقة. لكنّ رأسها كان مائلاً قليلاً هذه المرّة بحيث يمكنني رؤية جزء من وجهها. أمّا شعرها فقد لمّته وأسدلته على الجانب الأيسر كاشفة بذلك عن أكثر ما يمكن من وجهها وجيدها. أنتبه أيضًا إلى أنّ غرفتها لم تكن مظلمة وأنّ هناك ضوءًا خفيفًا ينبعث منها.

لا يخامرني عندئذ أدنى شكّ في أنّها عرفتني. بل ويُخيَّل إليّ أنّها عادت إلى النافذة عمدًا لكي أراها من جديد، وخصوصًا لكي أرى شعرها الجميل الذي كانت تخفيه تحت الحجاب. إلاّ أنّ ما يسترعي اهتمامي هو أن لا شيء إلى حدّ الآن في تصرّفاتها يدلّ على أنّها تحقد عليّ مثلما كنت أتصوّر. ولأوّل مرّة ينتابني قليل من الندم على ما فعلت، بل وأشعر بقليل من التعاطف معها.

يسرح خيالي بعيدًا وأفكّر في أمر ما كان ليخطر ببالي قبل لحظات قليلة. أمر ولّد فيّ مزيجًا من الخجل والاحتقار لنفسي. إذا وسوست لي النفس الأمّارة بالسوء وجمحت شهوتي في يوم من الأيّام فباستطاعتي أن ألتجئ إليها خصوصًا أنّ ما رأيته منها إلى حدّ الآن يشجّع المرء على أن يحاول معها على الأقلّ.

نعم. نعيمة الفاسدة. نعيمة المطلّقة المحجّبة قد تقدّم لي في وقت ما من الفترة التي سأقضيها في تونس مساعدة لم أكن أحلم بها إن

www.mlazna.com-RAYAHEEN

توفّرت الشروط الملائمة بالطبع، وكنت على يقين من أنّ الامر سيبقى سرًّا بيني وبينها . . إنّها مفاجأة سارّة حقًّا! . .

ليس هناك في النهاية ما هو أفضل في مثل هذه المسائل الحسّاسة من أن تسكن في العمارة نفسها التي تقيم بها امرأة من نوع نعيمة. كلّ ما في الأمر هو أن تحرص على أن يتمّ ذلك بعيداً عن أعين الفضوليّين وهي كثيرة في مثل هذه الأحياء.

مرّة أخرى أتنحنح لأرى ردّة فعلها. لا تبدر منها أيّ حركة. تظلّ على حالها كما لو أنّها لم تسمع شيئًا. إنّها تعرف الآن أنّي فوقها وأنّي أرقبها. أنحني أكثر وأركّز بصري على ما يظهر لي من وجهها فازداد تأكّدًا ممّا بدا لي لـمّا رأيتها مصادفة في الدرج، وهو أنّها سمنت وأنّ بشرتها صارت أكثر بياضًا. تبدو لي أيضًا أجمل وأكثر إثارة من قبل. أمّا آثار التقدُّم في العمر فهي لا تُرى. بالعكس يُخيَّل إليّ وأنا أنظر إليها من فوق أنّها أصغر من سنّها التي لا تتجاوز الأربعين. لعلّ تخلّيها عن الحجاب الذي مكّنني من أن أراها على هذه الهيئة للمرّة الأولى هو الذي أوحى لي بكلّ ذلك.

هل أكلّمها؟ لكن ماذا بوسعي أن أقول لامرأة مثلها الآن؟ ثم ماذا لو سمعني إبراهيم أو يسرى واكتشفا أنّي أتلصّص على نعيمة. والأخطر من ذلك أتحدّث إليها في مثل هذه الساعة المتأخّرة من الليل؟ إنّي واثق من أنّ من المستبعد حدوث هذا، فقد أويا إلى فراشهما منذ وقت طويل ولا شكّ أنهما يغطّان في النوم الآن. ثم إنّ نافذة غرفتهما المتاخمة لغرفتي لا تفتح على الشمال مثل نافذتي والنافذة التي توجد فيها نعيمة، بل على الشرق. لكن لا بدّ من التزام الحذر في مثل هذه الأمور.

أترك النافذة وأذرع الغرفة جيئة وذهابًا، في محاولة للسيطرة على اضطرابي. أشعر بالعطش فأتوجّه إلى المطبخ على أطراف أصابعي لكي لا أحدث أيّ ضجيج. أشرب حتى أرتوي. أبلّل جبيني بالماء البارد. ثم أعود إلى غرفتي. في تلك اللحظة أفكّر في أمر لم يخطر ببالي على الإطلاق. ماذا لو كانت نعيمة قد صمّمت على أن تنتقم لنفسها منّي وأنّ كلّ ما تفعله الآن يندرج ضمن خطّة جهنّميّة لاستدراجي إلى الفضيحة؟ ماذا لو كانت تنصب لي بتصرّفها المفاجئ هذا فخًّا محكمًا للتشفّي ممّا قلته عنها ليسرى؟

من الممكن أيضًا، وإن كنت أستبعد هذا، أنّها لم تيأس منّي تمامًا وأنّها لا تزال تمنّي النفس بأن أتزوّجها، فالغاية من هذا التصرُّف قد لا تكون الانتقام وإنّما إثارتي وتهييجي لأتعلّق بها وأقع في فخّ فتنتها. لعلّها استنتجت من النحنحة التي أطلقتها منذ حين ومن التلصُّص عليها أنّي أهتمّ بها.

أتقدّم من النافذة. وأنظر إلى الأسفل. لم تكن نعيمة هناك. أزداد انحناء فأكتشف أنّها أغلقت النافذة. حتى الضوء الخفيف الذي كان ينبعث من غرفتها تلاشى. أتأمّل من جديد السماء بنجومها اللامعة. ثم ألقي نظرة على مركز الشرطة الذي لا يزال مفتوحًا وأغلق نافذتي وأعود إلى الفراش.

ولم تكد تمضي بضع دقائق حتى أحسست بحركة في الممرّ أمام باب غرفتي الموصد. أرفع رأسي وأرهف السمع.

بعد برهة أسمع صوتًا. أشعل الضوء فأرى مقبض الباب يتحرّك. أنهض وأفتحه فإذا بي أرى وائل. يبتسم لي وهو يفرك عينيه:

ـ ماذا تفعل هنا؟..

ـ كنت في المرحاض..

ـ ولماذا لم ترجع إلى فراشك؟

ـ شفت الضوء.. في بيتك..

ـ أيّ ضوء؟.. بيتي ما كان فيها ضوء قبل أن أحسّ بك وراء الباب..

ـ كان ثمّة ضوء..

أدرك عندئذ أنّه على حقّ، وأنّ الضوء الذي يتحدّث عنه هو ما كان يتسلّل من ضوء مركز الشرطة القويّ إلى غرفتي من خلال النافذة التي لم تكن ستارتها مسدلة. آمره بأن يعود إلى فراشه. يمسك بيدي ويترجّاني أن أسمح له بالبقاء معي في انتظار أن يراوده النعاس من جديد. يشعّ وجهه الصغير فرحًا حين أوافق. يندفع إلى الفراش ويستلقي عليه. أتمدّد بجواره. بعد برهة وفيما كنت أفكّر في نعيمة يسألني:

ـ جامع فرانسا كبير؟

ـ آ..

ـ كبير.. مثل جامعنا؟

ـ آ..

ـ صومعته عالية؟

ـ إيه.

ـ ونظيف مثل جامعنا؟

ـ آ..

ـ وفيه إمام؟

ـ إيه..

ـ مثل إمامنا؟..

ـ آ..

ـ عنده لحية بيضاء؟

ـ إيه..

ـ ويحفظ كلّ القرآن؟

ـ إيه..

يلتصق بي ويسند رأسه إلى صدري.

ـ المعلّم في المدرسة قال لنا إنّ الذي لا يصلّي كافر..

ـ تعرف ما معنى كافر؟

ـ الكافر هو الذي لا يحبّ ربّي..

يرفع رأسه ويحدّق فيّ. كان واضحًا أنّه ينتظر منّي رأيًا أو ملاحظة أو تعليقًا على كلامه. لكنّي التزم الصمت.

ـ المعلّم قال لنا إنّ الفرنسيس واليهود كفّار..

بعد صمت طويل يضيف:

ـ قلت له عمّي يعيش في فرانسا.. ويصلّي في جامع فرانسا.. قلت له أيضًا امرأة عمّي كاترين فرنساويّة.. ولكن ما هي كافرة.. لأنّها تحبّ عمّي.. وتحبّ بابا وماما.. وتحبّني أنا..

حين يعود إلى فراشه أسدل ستارة النافذة وأطفئ الضوء. أحاول أن أطرد صورة نعيمة من ذهني. بيد أنّي لا أفلح في ذلك. أستعيد كلّ ما حدث منذ حين. ثم أشرع في تذكّر المرّات التي شاهدتها فيها خلال زيارتي السابقة، بحثًا عن حركة أو إشارة أو نظرة أو أيّ شيء من هذا القبيل يمكنه أن يساعدني على تفسير ما شاهدته في هذه الليلة. أظلّ أتنقّل من ذكرى إلى أخرى حتى يغلبني النعاس.

في صباح اليوم التالي، حالما أستيقظ، أهرع إلى النافذة. أفتحها وأنحني قليلاً متطلّعًا في حذر إلى نافذة نعيمة. كانت موصدة. أغادر الغرفة. أغتسل بسرعة ثم أتوجّه إلى المطبخ وقد عقدت العزم على أن أحدّث يسرى عمّا شاهدته في الليلة الماضية. وهذا ما فعلت أثناء تناول الفطور. كانت يسرى منهمكة في غسل أواني الطعام. تتوقّف عن العمل وتجلس قبالتي.

ـ رأيتها بالصدفة.. النوم هرب من عينيّ.. لا أدري لماذا.. لـمّا قلقت قمت من الفراش.. فتحت النافذة ونظرت إلى تحت..

فرأيتها..

تهزّ يسرى كتفيها. أواصل بعد قليل:

ـ الغريب أنّها ما كانت محجّبة..

تسوّي خصلة طويلة من شعرها أفلتت من الحجاب الذي لم تحكم وضعه. تبتسم ابتسامة خفيفة وهي تتطلّع إليّ ثم تقول بصوت هادئ:

ـ من وقت طويل تركت الحجاب.. وكشفت عن حقيقتها.. إنّها امرأة ساقطة.. كانت تكذب على الناس.. لكنّ ربّي سبحانه فضحها..

ـ وما زالت تضع كاسيت الدعاء في المسجّلة؟

ـ لا.. منذ أن تركت الحجاب وعرّت شعرها ما عاد ثمّة لا دعاء.. ولا ابتهالات.. قلت لك إنّها كذّابة.. كل تديّنها كان كذبًا في كذب..

أدرك أنّ يسرى تتيح لي، دون أن تدري، فرصة رائعة للحصول على أكثر ما يمكن من المعلومات عن نعيمة. بعد تردّد أسألها:

ـ عندها أولاد؟..

ـ لا.. إنّها عاقر.. لهذا طلّقها زوجها..

ـ وتسكن وحدها الآن؟

ـ لا.. تسكن معها عجوز..

ـ أمّها؟..

ـ هي تقول إنّها أمّها.. لكن أنا ما عدت أصدّقها.. صرت أشكّ في كلّ شيء تقوله..

ـ إذا ما كانت أمّها فمن تكون؟..

ـ لا أدري..

ـ يمكن تكون عمّتها.. أو خالتها..

لا تقول يسرى شيئًا. أشعر برغبة قويّة في أن أطرح عليها أسئلة أخرى. بيد أنّي لا أفعل خوفًا من أن تنتبه إلى أنّي أهتمّ بنعيمة أكثر من اللازم.

- ٥ -

حالما يراني النادل الذي يحلم بالهجرة في مقهى الأنترناسيونال يهرع إليّ ويصافحني بحرارة. ثم يشرع في البحث لي عن مكان. وحين أقول له إنّني لا أرغب حقًّا في الجلوس في المقهى، يلحّ عليّ بأن أعود بعد ساعة مؤكّدًا أنّه سيعثر لي على طاولة يجلس إليها زبائن طيّبون ومهذّبون أشاطرهم الجلوس بدون أن أشعر بأيّ حرج أو إزعاج كما حدث لي في المرّة الماضية.

أغادر المقهى. أسير في شارع الحبيب بورقيبة. ولمّا أبلغ نهايته يخطر لي أن أقوم بجولة في الجزء القديم من المدينة حيث تكون الحرارة في العادة أقلّ وطأة. أعبر زقاق جامع الزيتونة. السيّاح في كلّ مكان بالرغم من أنّ موسم السياحة في بدايته. كلّهم أوروبيّون. يتجوّلون على مهل. يتطلّعون إلى الدكاكين الصغيرة التي تغصّ بالتحف التقليديّة والصناعات الحرفيّة. يلتقطون الصور. يساومون الباعة في السلع التي يعرضونها عليهم بإلحاح.

www.mlazna.com-RAYAHEEN

أتذكّر مقهى شعبيًّا يوجد بالقرب من سوق العطّارين فأقصده على الفور. عندما أصل إلى المكان أكتشف أنّه لم يعد موجودًا، وأنّ مصرفًا يحلّ محلّه. أواصل التجوّل متنقّلاً من سوق إلى آخر حتى أجد نفسي في سوق الشواشين. أبتهج عندما أرى أنّ المقهى الذي يقع في قلبه عند تقاطع الزقاقين الرئيسيّين فيه لا يزال موجودًا.

ليس المقهى عاديًّا، فهو عبارة عن مصاطب حجريّة عند تقاطع الزقاقين، مفروشة بالحصر يجلس عليها الزبائن مستندين بظهورهم إلى الجدران. وتصطفّ أمام هذه المصاطب موائد صغيرة واطئة. لم يكن هناك أيّ فانوس مضاء فقد كان ضوء الشمس الذي يتسلّل من الكوّات الصغيرة في السقف كافيًا لإضاءة المكان. وفي إحدى الزوايا طاولة مستطيلة كُدّست عليها الفناجين والكؤوس والأباريق والمواقد لإعداد الشاي والقهوة. أطلب شايًا أخضر بالنعناع وأبدأ في ترشّفه، مستمتعًا بالهدوء وبرودة المكان.

وبينما كنت أتطلّع إلى الكوّات المنتشرة على السقف وأتأمّل الجدران البيضاء المطليّة بالكلس التي تضفي على المكان جمالاً خاصًّا، أشعر فجأة بيد تهبط على كتفي. ألتفت فإذا بي أراه منتصبًا أمامي. نجيب كمّون. ينحني عليّ ويقبّلني طويلاً. ثم يجلس بجواري بعد أن تزحزح الرجل الجالس بالقرب منّي قليلاً ليفسح له المكان.

تعرّفت على نجيب في الجامعة. كنّا في الكلّيّة نفسها وفي الشعبة نفسها. وكنّا نقيم في الحيّ الجامعي ذاته. أذكر أنّي ارتحت له منذ اللّقاء الأوّل. أحببت طيبته وتلقائيّته وخصوصًا بساطته العميقة.

إلاّ أنّ ما أعجبني فيه حقًّا وجعلني أتعلّق به في ما بعد هو ذكاؤه وثقافته الواسعة المتنوّعة.

بقيت على اتّصال به. كنت حريصًا أثناء زيارتي الأولى إلى تونس على أن ألتقيه. كان يفرح كثيرًا كلّما قابلني. وكان فخورًا بي لأنّني لم أسع إلى أن أعيّن أستاذًا مثلما فعل هو بعد حصولنا على الليسانس، وقرّرت أن أواصل دراستي في باريس للحصول على شهادة الدكتوراه. وبمرور الأيّام تباعدت لقاءاتنا. ثم تناقصت إلى أن انقطعت علاقتي به.

منذ أكثر من عشر سنوات لم أقابله. حتى أخباره القليلة التي كنت أحصل عليها ممّن كنت ألتقيهم بالصدفة من الطلاّب الذين كانوا يدرسون معنا انقطعت تمامًا.

أوّل شيء سألني عنه بعد كلّ الأسئلة التقليديّة عن أحوالي وصحّتي وزيارتي إلى تونس وظروف إقامتي هو الدكتوراه.

تظهر على وجهه علامات الخيبة والتأسّف حين أخبره بأنّي توقّفت عن الدراسة وتخلّيت عن حلمي لأنّ ظروف الحياة لم تسمح لي بتحقيقه. وعندما أقول له إنّي أعمل أستاذًا في إحدى ثانويّات باريس، وإنّي راض عن وضعي تنبسط أسارير وجهه. إلاّ أنّ ما يبهجه حقًّا هو زواجي من فرنسيّة واستقراري في باريس.

- برافو..

يقول لي قبل أن يضيف بلهجة واثقة:

ـ في الوقت الحاضر.. ليس هناك ما هو أحسن من الزواج من أوروبيّة..

أنظر إليه بشيء من الاستغراب.

ـ لو قبلت واحدة من هؤلاء السائحات الأوروبيّات أن تتزوّجني لسجدت لها.. وقبّلت قدميها..

أتذكّر أنّ علاقته بالمرأة قبل أن يتزوّج كانت صعبة ومعقّدة. فهو ليس من هؤلاء الرجال الذين تعجب بهم النساء بسبب بساطته وتواضعه اللذين يوحيان للذين لا يعرفونه جيّدًا بالضعف والهشاشة وعدم الثقة بالنفس، وربّما أيضًا لعدم اهتمامه بما يشغل النساء في العادة، وعدم القدرة على التظاهر بذلك. كنت أعرف أنّه يتألّم لذلك سرًّا. لكنّي لم أسمعه أبدًا يقول كلامًا من هذا القبيل.

ـ صدّقني.. لو وجدت امرأة أوروبيّة لتزوّجتها فورًا..

أسأله مازحًا، عندما استوعبت الحالة التي ألفيت فيها نفسي بعد سماع كلامه الذي لم أكن أنتظره من رجل مثله خصوصًا في اللحظات الأولى من لقائنا:

ـ وماذا تفعل لو طلبت منك أن تذهب معها إلى بلادها؟

يردّ على الفور كما لو أنّه كان ينتظر هذا السؤال:

ـ أذهب معها إلى حيث تريد.. أذهب معها حتى إلى بلاد الواق واق..

يميل عليّ ويهمس في أذني بعد أن ينظر حولنا للتأكّد من أن لا أحد يراقبنا:

ـ تونس تغيّرت..

أحرّك رأسي قليلاً لكي أظهر له أنّي أولي كلامه ما يستحقّ من الاهتمام. يتطلّع حوله من جديد قبل أن يضيف وهو يزداد اقترابًا منّي:

ـ تغيّرت نحو الأسوأ.. بالطبع..

يسكت عندما نكتشف أنّ الرجل الجالس بالقرب منّا يمدّ رأسه في اتّجاهنا، محاولاً على ما يبدو الاستماع إلى ما يدور بيننا.

أسأله بعد لحظة عن عمله، مغيّرًا موضوع الحديث.

ـ متعب.. وممل..

كان يحبّ مهنة التدريس ويجد متعة هائلة في ممارستها. أذكر أنّه كان يحدّثني عنها بحماس كبير أثناء اللقاءات التي كانت تجمعنا خلال زياراتي الأولى إلى تونس. كان يؤكّد أنّها المهنة التي تناسبه حقًّا لأنّها تضمن له دخلاً معقولاً كافيًا لتأمين عيشه، وتوفّر له من الوقت ما يكفي لإشباع رغبته في القراءة، فضلاً عن أنّها تمكّنه من أن يبقى على اتّصال دائم بعالم الأطفال الذين يحبّهم.

ـ وفلوسه قليلة..

يمسك بفنجان القهوة بيديه الاثنتين. ويبدأ في ترشّفه محدثًا صوتًا بشفتيه الغليظتين. أتذكّر أنّه كان معقّدًا بسبب هاتين الشفتين اللتين تشبهان شفاه الزنوج.

ـ تصوّر.. بعد كلّ هذه الأعوام من الخدمة راتبي ما زال ضعيفًا..

يضع الفنجان بحذر شديد وسط المائدة، ويتابع بصوت مرتفع وهو ينظر في اتّجاه الرجل الجالس بالقرب منّا كما لو أنّه يتوجّه إليه بالكلام:

ـ راتبي لا يكفي.. وزوجتي صارت تخاصمني كلّ يوم تقريبًا..

إنّها المرّة الأولى التي يشتكي لي فيها من زوجته. أتذكّر أنّه تزوّج مبكرًا بعد تخرّجه من الجامعة بعام أو عامين وأنّه كان سعيدًا بزواجه. كان يحدّثني كلّما التقيه عن زوجته التي تربطه بها علاقة قرابة غامضة لم أعد أذكرها. كان يقول لي إنّه محظوظ لأنّه عثر أخيرًا على المرأة التي تفهمه وتقدّره وتناسبه تمامًا. في تلك الفترة كنت لا أفكّر إطلاقًا في الزواج، ليس لانهماكي التامّ في الدراسة فحسب وإنّما لعدم اقتناعي به أيضًا. وكان هو لا يتوقّف عن مديح الزواج وإبراز فوائده لحثّي عليه.

ـ أنا الذي أتكفّل بكلّ شيء.. الأكل.. ومصروف الدار والأولاد.. زوجتي لا تعمل.. ولا تكسب مليمًا واحدًا.. ومع ذلك تخاصمني!..

أدرك في تلك اللحظة حجم المأساة التي يعيشها. وأشعر بقليل من التعاطف معه. تتملّكني رغبة حقيقيّة في أن أقول له شيئًا ما يخفّف عنه قليلاً. لكنّني لا أجد ما يمكن أن أقوله.

ـ والمشكلة أنّني لا أقدر أن أفعل لها أيّ شيء.. فلو طلّقتها لأجبروني على أن أترك لها الدار.. لأنّ الأولاد سيبقون معها..

هذا هو القانون في تونس.. الرجل يترك الدار للمرأة والأولاد لمّا يطلب الطلاق.. الرجال هنا في تونس يخافون من النساء..

يرفع يده ويمرّرها على رأسه. أفطن إلى أنّه لا يزال يحتفظ بكلّ شعره المجعّد. لا شيء تغيّر فيه سوى بضع شعرات بيضاء ظهرت في مقدّمة الرأس.

ـ ليس هناك ما هو أحسن من الأوروبيّة..

يصمت ثانية. أنتهز الفرصة لأواصل استكشافي للمكان الذي حرمني منه ظهوره المباغت. ثمّة زبائن على كلّ المصاطب.

وفي المكان المقابل لنا تجلس سيّدة في الأربعين مع رجل يبدو أصغر منها. كانت ترتدي ثيابًا حديثة ومحتشمة وتضع على عينيها نظّارة سوداء. شعرها قصير. وحول جيدها الطويل سلسلة من الذهب. الرجل يتكلّم دون توقّف وهي تنصت إليه في صمت، وتدخّن بمتعة واضحة. وفيما كنت أختلس النظر إلى شفتيها الرقيقتين وهما تمتصّان السيجارة ثم تنفرجان لإطلاق الدخان يقول لجيب:

ـ لو هاجرت مثلك لما وجدت نفسي في مثل هذه الحالة..

لا أستطع أن أمنع نفسي من أن أقول له بنبرة لم أفطن إلى حدّتها إلاّ فيما بعد:

ـ أوروبا ليست جنّة كما تظنّ.. النساء في أوروبا أشكال وأصناف.. ويمكن أن تسقط على امرأة أسوأ بكثير من زوجتك..

ـ بالطبع.. ثمّة مشاكل في أوروبا.. لكنّ هناك أشياء أخرى.. هنا لا تجد إلاّ المشاكل.. حتى الشهادات صارت بلا قيمة..

يتابع وقد ارتسمت على شفتيه ابتسامة ساخرة:

www.mlazna.com-RAYAHEEN

ـ أعرف شابًّا في الحيّ.. لم ينجح حتى في الباكالوريا.. كان بطّالاً.. وكان يتسكّع طول الوقت في الأسواق.. تعرّف بالصدفة على سائحة ألمانيّة.. أعجبها شكله.. لمّا رجعت إلى بلادها بعثت له عقد عمل فسافر إلى ألمانيا.. تزوّجته و استقرّ هناك.. ابن الكلب صار يعيش أحسن من الوزير.. كلّ صيف يجيء إلى تونس في سيّارة مرسيدس كبيرة من آخر ماركة.. ومن فترة قصيرة بنى داراً لعائلته واشترى فيلاً في الحمّامات!.. وهناك شباب كثيرون مثله يعيشون من السياحة.. تراهم كلّ يوم في الأسواق يطاردون السائحات.. وبعضهم متخصّص في نيك المخنّثين.. ولا يعيش إلاّ من هذا.. تونس صارت في الأعوام الأخيرة على ما يبدو جنّة للمخنّثين.. يأتون من كلّ أوروبا بحثًا عمّن ينيكهم.. آه.. يا ربّي.. لماذا لا أتعرّف على سائحة مثل الألمانيّة تتزوّجني وتحملني معها إلى بلادها؟..

يطلق ضحكة عالية. أضحك بدوري لمجاراته.

ـ ولكن مَنْ سيعجبها رجل في سنّي وله هاتان الشفتان الغليظتان؟.. لا أحد.. اللّهمّ إلاّ إذا كانت عجوزاً خرفانة وبلا أسنان من عام ككح..

بعد برهة ينهض بغتة.

ـ لازم أذهب الآن.. تأخّرت كثيراً..

ـ إلى أين؟

ـ إلى الدار.. زوجتي تنتظرني.. وستقلب الدنيا على رأسي لو تأخّرت أكثر..

ـ ٦ ـ

عندما تخبرني يسرى بأنّ بنكًا فتح أبوابه في حيّ البساتين أعدل عن فكرة الذهاب إلى مركز المدينة، وأقرّر أن أقوم بما كنت أعتزم القيام به في الحيّ، وهو صرف وتبديل جزء ممّا كان لديّ من نقود أجنبيّة، والتوجّه فيما بعد إلى مبنى البريد لكي أخابر كاترين وأطمئنها على أحوالي؛ فأنا لم أخابرها سوى مرّة واحدة. كان في نيّتي أن أفعل ذلك أمس في مركز المدينة. لكنّ لقائي المفاجئ بنجيب أنساني الأمر تمامًا. إبراهيم أكّد لي أكثر من مرّة أنّ بإمكاني أن أخابرها من بيته، بل واقترح عليّ أن أفعل ذلك من هاتفه النقّال الذي لا يكفّ عن إخراجه من جيبه والتطلّع إليه بإعجاب. لكنّني رفضت. لم أشأ أن أزيد في نفقاته.

أثناء نزولي الدرج، أتمهّل قليلاً عندما أصير في الطابق الثالث للتطلّع إلى باب شقّة نعيمة. أكتشف وأنا أدقّق فيه النظر أنّه غير مغلق. يعتريني قليل من الاضطراب. أمدّ رأسي قليلاً محاولاً أن أنظر إلى

الداخل. إلاّ أنّي لا أتمكّن من رؤية أيّ شيء. أتسمّر في مكاني لا أدري ما أفعل. وفي اللحظة التي أهمّ فيها بالاقتراب أكثر من الشقّة أسمع صوتًا خلف الباب فأغادر المكان على الفور. في سطيحة الطابق الثاني تزلّ قدمي وأكاد أسقط، فقد كان الدرج مبلّلاً كالعادة في مثل ذلك الوقت من الصباح.

أتوقّف في الممرّ الذي يخترق الحديقة وأرفع رأسي إلى شقّة نعيمة. النافذة الوحيدة التي كان باستطاعتي أن أراها من هناك مفتوحة على مصراعيها. أواصل السير لكي لا ألفت انتباه بعض النساء اللاتي كنّ يراقبن الحركة حول العمارة من النوافذ والشرفات. أتطلّع من جديد إلى الشقّة قبل أن أخرج من الحديقة إلاّ أنّي لا أشاهد أحداً. كنت واثقًا من أنّ الصوت الذي سمعته ليس صوتها، ولا صوت العجوز التي صارت تقيم معها. إنّه صوت ذكوري. غير أنّه ليس صوت رجل بل صوت طفل أو هكذا بدا لي على الأقلّ.

أتفاجأ بالعدد الهائل من الذين كانوا داخل البنك . ليس هناك سوى موظّف واحد لاستقبال الزبائن. وأمام مكتبه طابور طويل من المنتظرين. أتوجّه رأسًا إلى مكتب تبديل النقود الخالي تمامًا. الموظّف مستغرق في إحصاء رزمة من الأوراق الماليّة. عندما يرفع رأسه أحيّيه. لا يردّ عليّ تحيّتي. يشير بحركة خفيفة من رأسه إلى طابورالمنتظرين. أقول له إنّي لا أريد سوى تبديل قليل من النقود الأجنبيّة. يحدجني بنظرة باردة ويأمرني بأن أنتظر دوري مثل الآخرين، وأن أمرّ بمكتب الاستقبال لتسجيل اسمي وتسلّم إذن بالتبديل؛ فبدون هذا الإذن لن يصرف لي فلسًا واحداً حتى وإن كانت النقود الأجنبيّة التي بحوزتي دولارات

أميركيّة. أقف في الطابور الذي يتقدّم ببطء شديد إلى أن يأتي دوري. يطلب الموظّف جواز سفري.

وبعد أن يقلّبه ويتفحّص الصورة طويلاً، يتفرّس في وجهي ليتأكّد من أنّه جوازي. يسألني عن مكان إقامتي في تونس. ثم يعيد لي الجواز ويعدّ لي الإذن بالتبديل.

حالما أخرج من البنك أتوجّه إلى مبنى البريد. كان في برنامجي أن أخابر كاترين قبل العودة إلى البيت عند الظهيرة، لأنّي لا أحبّ الحديث في التلفون في الصباح. لكنّي غيّرت رأيي وقرّرت أن أخابرها آنذاك خشية أن أنسى القيام بذلك مرّة أخرى. بعد أن أفرغ من المكالمة أجلس على أحد المقاعد المصطفّة أمام مقصورات الهاتف وأبدأ في مراقبة ما يحدث في المبنى. حين أسأم من ذلك أغادرالمكان وأسير في شارع طويل مواز لشارع أبي القاسم الشابي إلى أن أصل إلى المجمّع التجاري.

إبراهيم ويسرى حدّثاني بحماس عدّة مرّات عن المجمّع. وفي كلّ مرّة يبديان إعجابهما الشديد به، ويؤكّدان لي أنّه يختلف تمامًا عن المجمّع القديم الذي أعرفه؛ فهو أجمل وأنظف وخصوصاً أكبر منه بكثير. فقد اشتراه مهاجر حاجّ مقيم في ألمانيا استطاع أن يجمع ثروة من تجارة اللحم الحلال، وجعل منه مجمّعاً حقيقيًّا يليق بحيّ البساتين. رمّمه وهدم جزءاً كبيراً منه وأضاف إليه عدداً من الدكاكين وفتح فيه مقهى عصريًّا ومطعمًا فاخرًا وسوبرماركت أكبر من السابق بثلاث مرّات.

كلّ ما في المقهى مرتّب ونظيف. وهو فخم بالنسبة لحيّ متوسّط يعدّه البعض من الأحياء الشعبيّة. وبينما كنت أنظر إلى صور ملوّنة

لفرق كرة قدم تونسيّة وأوروبيّة معلّقة على الجدران، يرتفع صوت أمّ كلثوم. أنظر إلى مدير المقهى الذي كان يجلس خلف الكونتوار فيبتسم ابتسامة واسعة. أبتسم له بدوري بالرُّغم من أنّي انزعجت قليلاً، فأنا أكره المقاهي التي تُذاع فيها الأغاني حتى وإن كانت هذه الأغاني لأمّ كلثوم.

أكثر من نصف الطاولات شاغرة. أغلب الزبائن من الشباب. وبعضهم منهمك في لعب الورق. أفطن وأنا أسترق النظر إليهم إلى أنّ اثنين من الذين يجلسون إلى إحدى الطاولات القريبة كانا من بين الشبّان الذين شاهدتهم قبل أيّام قليلة منتصبين أمام مدخل الحديقة التي توجد فيها عمارة أخي. يتوقّفان عن اللعب للحظة ويتطلّعان إليّ وهما يتهامسان ثم يستأنفان اللعب.

يأتي مدير المقهى ويسألني إن كنت أحبّ أغنية «الأطلال» التي تغنّيها أمّ كلثوم آنذاك. أجيبه بالإيجاب فيقول لي إنّه يعشق أمّ كلثوم، ويعتبر صوتها واحدة من معجزات الخالق سبحانه وتعالى، وإنّه يحفظ عن ظهر قلب الكثير من أغانيها المشهورة قبل أن يذكر لي بافتخار أنّ عمّه حضر الحفل الذي أحيته في قصر الرياضة بالمنزه في تونس عام ٦٥.

أشعر بشيء من الارتياح عندما يتركني. إلاّ أنّ إحساسي هذا سرعان ما يتلاشى فهو يعود إليّ بعد أن دار على الطاولات ليسألني إن كنت من المقيمين الجدد في الحيّ. أجيبه بأنّي أعيش في فرنسا، فيقول إنّه يحبّ هذا البلد ويفضّله على كلّ بلدان أوروبا بسبب فريقه الرائع لكرة القدم، لكنّه لا يفهم إلى حدّ الآن لماذا منعوا ارتداء الحجاب وصاروا يطردون الفتيات المسلمات المحجّبات من المدارس.

السوبرماركت قريب جداً من المقهى وهوكبير فعلاً. معظم الزبائن الذين كانوا داخله نساء. وكلّ البائعات والفتيات اللاتي يجلسن خلف صناديق الدفع صغيرات السنّ وحلوات. كنّ يلتفتن حولهنّ باستمرار. وبعضهنّ يبردن أظفارهن أو يسوّين شعورهنّ أو ينظرن في المرايا.

لم تكن لديّ أيّ رغبة في التجوُّل في السوبرماركت. لكنّي أصمّم على أن أتنقّل بين كلّ الأجنحة؛ فقد كنت واثقًا من أنّ إبراهيم ويسرى سيمطرانني بالأسئلة عنه حين أعود إلى البيت. وسيصابان بالتأكيد بخيبة أمل لو اكتشفا أنّي لم أتجوّل فيه كما ينبغي ولم أشاهد كلّ ما فيه عملاً بنصيحتهما.

حالما أستدير للخروج، أجد نفسي وجهًا لوجه مع نعيمة. تسري في جسدي ارتعاشة هائلة. تركّز عليّ نظرها لثانية كأنّها تريد أن تتثبّت ممّا ترى. ثم تشيح عنّي بوجهها وتواصل سيرها. أتسمّر في مكاني. وبعد أن أستوعب قليلاً المفاجأة التفت إلى الخلف فأكتشف أنّها توقّفت على بعد بضع خطوات منّي وأخذت تتفحّص البضائع.

أيّ صدفة رائعة هذه! لم يكن يخطر ببالي على الإطلاق أن ألتقيها في هذا المكان، وفي مثل ذلك الوقت. لكن هل هي فعلاً مجرّد صدفة؟ لعلّها رأتني وأنا أنزل الدرج، أو عندما كنت أتجوّل في أحد الشوارع أو حتى في البنك أو في مكتب البريد.

ربّما تبعتني إلى المجمّع دون أن أنتبه إلى ذلك. ألاحظ أنّها استدارت قليلاً نحوي، كما لو أنّها تودّ أن تنظر إليّ لكنّها لا تجرؤ على

ذلك. كانت ترتدي الفستان البرتقالي نفسه الذي كانت ترتديه لمّا رأيتها ليلاً في نافذتها. وكانت تنتعل حذاء بكعب عال.

تخطو بضع خطوات مديرة لي ظهرها. لأوّل مرّة أراها بوضوح من الخلف. يبدو لي جسدها أكثر امتلاء وتناسقًا. تتوقّف ثانية فأسير في اتّجاهها. إلاّ أنّي لم أجرؤ على الاقتراب منها. كنت واثقًا من أنّها غير متضايقة من مراقبتي لها. إلاّ أنّي كنت أخشى ردّ فعلها لو ازددت اقترابًا منها أو كلّمتها. أصمّم على أن أبتسم لها عندما تتطلّع إليّ. وهذا ما فعلته بعد لحظة. لا تردّ على ابتسامتي. تستدير وتمسك بعلبة سردين. تتفحّصها قليلاً. ثم تعيدها إلى مكانها وتغادر السوبرماركات بخطوات سريعة.

هل أرادت أن تختبر مدى رغبتي في ملاحقتها؟ لعلّ خروجها من السوبرماركت هو من باب الممانعة. ربّما فعلت هذا لكي أتبعها إلى مكان أكثر انزواء في المجمّع التجاري. أخرج على الفور وأبدأ في البحث عنها. أسلك كلّ الممرّات وأنا أتطلّع إلى داخل كلّ متجر أمرّ به فلا أعثر لها على أثر، كأنّ الأرض انشقّت وبلعتها. وفي اللحظة التي أصمّم فيها على مغادرة المجمّع بعد أن يئست تمامًا من العثور عليها أراها..

كانت واقفة أمام واجهة متجر لبيع لعب الأطفال بالقرب من مدخل المجمّع. أستجمع كلّ قواي بعد أن أتطلّع حولي للتأكّد من خلوّ المكان ممّن يعرفني. وأتوقّف بجانبها. لم تكن تفصلني عنها سوى خطوة واحدة. يغزو عطرها أنفي. كان ممزوجًا برائحة لم أتمكّن من تحديدها. حين أرفع رأسي أخيرًا للنظر إلى وجهها ترتسم شبه ابتسامة

على شفتيها اللتين كانتا مطليّتين بأحمر خفيف لم ألحظه منذ حين. وعندما أزداد اقترابًا منها تغادر المكان. لو تصرّفت على هذا النحو حين كنّا داخل السوبرماركت لكلّمتها. أمّا الآن، وقد خرجت وصارت في الشارع عرضة لأنظار كلّ الذين يعرفونها في الحيّ، فإنّ التحدّث إليها أو حتى الاقتراب منها سيسبّب لها ولي بعض المشاكل.

ومن حسن الحظّ أنّي لم أتبعها. فحالما أستأنف جولتي أسمع أحدًا يناديني. أستدير فإذا بي أرى ليلى أخت يسرى تتقدّم منّي وهي تبتسم. تصافحني بحرارة قبل أن تمدّ رأسها وتقبّلني على خدّي. فعلت ذلك بتلقائيّة كبيرة؛ فليلى ليست متديّنة مثل يسرى. إنّها جريئة وصريحة مثلها لكنّ شخصيّتها أقوى. بل يمكن القول إنّها امرأة متحرّرة فقد درست في الجامعة لفترة قصيرة. وسافرت إلى أوروبا لمّا كانت طالبة. وهي ليست عاطلة عن العمل وتكتفي بتدبير شؤون البيت مثل الكثير من النساء في حيّ البساتين وإنّما موظّفة في شركة توجد في مركز المدينة. ويبدو أنّ زوجها المعلّم المعروف بشدّة تعلّقه بها لا يتضايق من تحرّرها، فهو من أكثر الرجال في الحيّ تفتّحًا وتسامحًا وقبولاً لفكرة حرّيّة المرأة. وهناك من يقول إنّ موقفه المتسامح هذا يعود أيضًا إلى أنّه يخشى أن تطلّقه في يوم من الأيّام، ليس بسبب دمامته وإنّما لأنّ راتبها أعلى من راتبه إلى حدّ لا يمكن التغاضي عنه.

كانت مبتهجة حقًّا بلقائي. كانت لا تتوقّف عن مداعبة خصلات شعرها الطويل الذي ينسدل على كتفيها العاريتين. تذكّرت أنّهم يسمّونها «الشقراء» بالرغم من أنّ الجميع في حيّ البساتين يعرف أنّها ليست شقراء. كلّ ما في الأمر أنّها تصبغ شعرها بانتظام بمستحضر

www.mlazna.com-RAYAHEEN

مستورد من إيطاليا يشتريه لها زوجها من صديق له يعمل في إحدى البواخر التي تربط بين تونس وجنوة.

أذكر أنّي أعجبت بها لمّا رأيتها للمرّة الأولى في شقّة إبراهيم القديمة. آنذاك لم تكن متزوّجة. ومنذ ذلك الوقت يخفق قلبي قليلاً كلّما التقيها. لو بقيت في تونس لربّما كانت زوجتي الآن. الجميع يتّفق على أنّ يسرى التي تكبرها بعامين تفوقها أدبًا وأخلاقًا وذكاء. لكن لا أحد من كلّ الذين أعرفهم، بمن فيهم إبراهيم، ينكر أنّها أجمل منها. الحقيقة أنّها ليست أجمل منها بل أكثر أنوثة. وهي تعرف كيف تبرز مفاتنها. وما يساعدها على ذلك هو أنّها لا تتحرّج من ارتداء ملابس ضيّقة أو قصيرة أو شفّافة أو بلا أكمام تكشف أجزاء من جسدها.

تعتذر لي عن عدم مجيئها إلى البيت لتسلّم عليّ عندما بلغها خبر وصولي، فهي متخاصمة الآن مع أختها. وقد كانت على يقين من أنّها ستلتقيني ذات يوم في الحيّ. أسألها عن سبب هذه الخصومة فتضحك وتجيب بأنّها خصومة نساء، قبل أن تضيف أنّها صارت تنزعج كلّما التقتها منذ أن غرّرت بها نعيمة وحوّلتها إلى متديّنة، فهي لا تكفّ عن إبداء ملاحظات عن ملابسها. أقول لها إنّ نعيمة لم تعد محجّبة . تقول وهي تغمز بإحدى عينيها الشبيهتين بعيني يسرى إنّ هذا أفضل لها ولغيرها.

بعد أن تودّعني ليلى، أخرج من المجمّع و أسير على غير هدى. الطقس حارّ كالعادة لكنّي لم أكن أحسّ بوطأة الحرارة فقد كان يهبّ قليل من النسيم من حين إلى آخر. أصل إلى طرف الحيّ حيث آخر

موقف للحافلات. قبل بضعة أعوام كان أرضًا خالية إلاّ من فيلاّت قليلة متباعدة. الآن يعجّ بالحركة. هناك دكاكين حيثما نظرت. كلّها صغيرة وبعضها كان في الأصل كاراجًا على ما يبدو وتحوّل إلى بقالة أو صالون حلاقة أو مجزرة أو ورشة لتصليح السيّارات أو دكّان لبيع الخضر والفواكه، أو حتى محلّ طهارة لختان الأطفال. أقضي وقتًا طويلاً في هذا الجزء الشعبي من الحيّ ولا أغادره إلاّ عند الظهيرة.

الشبّان الثلاثة واقفون كالعادة أمام مدخل الحديقة التي توجد فيها العمارات. أصواتهم مرتفعة كما لو أنّهم يتشاجرون. عندما أصبح على بعد خطوات قليلة منهم يصمتون فجأة. يدنو منّي أحد اللذين شاهدتهما في المقهى داخل المجمّع ويطلب منّي سيجارة. أقول له إنّي لا أدخّن فيهزّ رأسه دون أن ينبس بكلمة. ولكن حالما أتابع سيري تتناهى إليّ ضحكة عالية. ثم أسمع أحدهم يشتم المهاجرين ويسخر منهم، واصفًا إيّاهم بالكذّابين الذين يوهمون الناس بأنّهم أغنياء في حين أنّهم يعيشون كالشحّاذين في أوروبا. لا أردّ عليه كما لو أنّني لم أسمع شيئًا. لكن يبدو أنّ هدوئي شجّعهم على التمادي في ذلك، فقد ازدادت ضحكاتهم ارتفاعًا وتحوّلت إلى قهقهات.

أصعد الدرج وأنا أفكّر في نعيمة وفي ما حدث لي معها في المجمّع. وعندما أبلغ الطابق الثالث أتطلّع إلى باب شقّتها. كان لا يزال مواربًا كما تركته قبل أكثر من ساعتين. أتوقّف وأرهف السمع للحظة قصيرة. لكنّني لا أسمع شيئًا. من المحتمل أنّ نعيمة لم تعد بعد إلى الشقّة. ولكن لماذا يتركون الباب مفتوحًا؟ ثم لماذا هذا الصمت؟ ألا يوجد أحد في البيت؟ أين صاحب الصوت الذي سمعته لمّا نزلت

الدرج؟ أين العجوز؟ إذا كانا قد خرجا هما أيضًا فلماذا لا يوصدون الباب؟

تستحوذ عليّ هذه الأسئلة فأبقى جامدًا في مكاني. كنت أدرك أنّه ينبغي ألاّ أظلّ واقفًا هناك، فقد ينفتح أحد الأبواب الثلاثة الأخرى في أيّ لحظة ويُفتضح أمري. إلاّ أنّني لا أتحرّك. لم أتمكّن من مقاومة الرغبة في معرفة ما يحدث.

أنظر إلى أسفل الدرج ثم إلى أعلاه. وحين أتأكّد من أنّه خال تمامًا أتقدّم على أطراف أصابعي من شقّة نعيمة. عندما أصير أمام الباب أنصت من جديد. لكن لا صوت ولا حركة. أمدّ رأسي. وعندما أهمّ بالتطلّع إلى الداخل أفاجأ بطفل يطلّ خلف الباب ويسألني عمّا أفعل. أقول له إنّني أبحث عن شخص يسكن في العمارة وإنّني لم أعد أذكر في أيّ طابق وأيّ شقة. لا يسألني عن اسم الذي أبحث عنه ولا عن شكله وملامحه. ينظر إليّ بعينين جامدتين. ثم يتراجع ليختفي خلف الباب الذي تركه مواربًا كما كان.

أواصل صعود الدرج وأنا أحمد اللّه على أنّ الأمر مرّ بسلام. حين أبلغ شقّة أخي أتوقّف قليلاً لأستعيد هدوئي. وعندما أدخل يسألني إبراهيم الذي اكتشفت أنّه كان يتابع من النافذة ما حدث في مدخل الحديقة عمّا يضحك الشبّان، وعمّا إذا كانوا قد سبّبوا لي إزعاجًا ما أو تفوّهوا أمامي بعبارات نابية. أجيبه بأنّي لم أسمع شيئًا بل وأتظاهر بأنّي لم أنتبه أصلاً لضحكاتهم.

- ٧ -

حالما أفيق من النوم أسمع صرختها. بعد برهة أدرك أنّ الصرخة هي التي أيقظتني. كنت على يقين من أنّ الصوت ليسرى. وفيما كنت أتساءل عن سبب هذا الصراخ في مثل هذا الصباح، يُفتح باب الغرفة فجأة ويطلّ منه وائل. أتذكّر وأنا أنظر إلى الساعة أنّ اليوم هو الأحد. ظلّ في مكانه في انتظار أن أسمح له بالدخول. أناديه فيندفع راكضًا نحو السرير. يندسّ تحت الغطاء. ثم يقول وهو يلتصق بي:

ـ بابا وماما يتعاركان..

لا أُفاجأ بذلك، فأنا أعرف أنّهما يتشاجران باستمرار. وفي كلّ عطلة أقضيها برفقتهما أشهد عددًا من شجاراتهما. وقد استغربت هذه المرّة أن يمرّ أكثر من أسبوع بدون أن يتشاجرا وإن كنت أرجّح أنّهما فعلا ذلك في غيابي. وأشدّ هذه الشجارات تحدث يوم الأحد وتحديدًا

في الصباح بعد أن يفرغا من تناول الفطور ويشرعا في الحديث عمّا يشغل باليهما من مسائل وقضايا.

يسرى هي المسؤولة في أغلب الأحيان عن هذه الشجارات. والأسباب كثيرًا ما تكون بسيطة؛ فإبراهيم ليس زوجًا صعبًا وهو يحبّ يسرى ويعتبرها زوجة صالحة. أمّا يسرى فهي فخورة بإبراهيم. إنّها تعرف جيّدًا أنّه حريص على أن يوفّر لها ولابنهما كلّ ما يحتاجان إليه بالرُّغم من راتبه المتواضع. بفضله يعيشون كما تعيش أغلب الأسر التي تعرفها في الحيّ، بل وحتى مثل أسرة أختها ليلى وزوجها اللذين يحصل كلّ منهما على راتب في كلّ شهر. إنّهم يملكون مثلهم شقّة جديدة وإن كانت أصغر من شقّتهم ولا تحتوي إلاّ على غرفتين. كما أنّهم ينفقون على الأكل واللباس مثلهم. ووائل ليس أسوأ حالاً من ابن أختها المدلّل. زوج ليلى له هاتف نقّال. إبراهيم أيضًا له هاتف وإن كان من طراز قديم. الشيء الوحيد الذي يتفوّقون به عليهم هو السيّارة، كما أنّ ليلى صارت تمتلك هي أيضًا هاتفًا نقّالاً منذ أشهر قليلة. إلاّ أنّ هذا لا يزعج كثيرًا يسرى لأنّ الجميع يعرف أنّ أختها اشترت الهاتف من مالها الخاصّ. لو كان هديّة من زوجها لحسدتها بالتأكيد وألحّت على إبراهيم ليشتري لها الشيء نفسه. ثم بماذا سيفيدها هاتف نقّال وهي لا تعمل، وتقضي أغلب الوقت في بيتها؟

تصرخ يسرى ثانية فيردّ عليها إبراهيم بصرخة مماثلة أعقبها نقاش حادّ. التحق بهما في المطبخ فأكتشف أنّ سبب شجار هذا الأحد هو الزيارة التي سيؤدّيها لهما أخونا الأكبر البشير برفقة زوجته عائشة. كان إبراهيم قد أخبرني قبل يومين بهذه الزيارة. قال لي إنّ البشير سيأتي إلى

تونس لقضاء حاجة ما، وسينتهز هذه الفرصة فيمرّ على البيت في آخر المساء ليسلّم عليّ. وقد دعاه إبراهيم لتناول العشاء معنا.

والخلاف بين إبراهيم ويسرى ليس عن الزيارة والدعوة للعشاء فهذا أمر طبيعي، والتزاور بين عائلات الإخوة والأخوات لا ينقطع أبدًا وإنّما عن الطريقة التي سيستقبلان بها البشير وزوجته. إبراهيم يريد أن يستقبلهما بحفاوة كالعادة. والحفاوة في مثل هذا النوع من الزيارات تقاس بأهمّيّة العشاء الذي سيحضّرانه لهما. إنّه لا يقبل أن يدعو أخاه الأكبر وزوجته ثم يعدّ لهما عشاء عاديًّا فهو يرفض أن يهانا في بيته بالرغم من أنّه مقتنع بأنّ البشير أناني، وبأنّ زوجته كذّابة ومعجبة بنفسها. أمّا يسرى فهي تعارض هذا الرأي لأنّها لن تنسى أبدًا الزيارة الأخيرة إلى بيت البشير بعد الانتهاء من ترميمه.

إنّها تعترف بأنّهما استقبلاهم بترحاب كبير وأصرّا على أن يرافقاهم خلال الجولة التي قاما بها في أرجاء البيت الفسيح للتفرّج على كلّ ما يحتويه. وهي لا تنكر أيضًا أنّهما أحاطا وائل بشيء من الرعاية، وداعباه ولاطفاه عدّة مرّات. لكنّ ما قدماه لهم من طعام فيما بعد كان متواضعًا جدًّا لا يليق بهم ولا بأغنياء مثلهما.

إلاّ أنّ ما حزّ في نفسها هو أسلوب عائشة المتعالي في تصرّفاتها معها. كانت تشعرها في كلّ لحظة بأنّها أفضل منها. يسرى مقتنعة على أيّ حال بذلك، فهي ليست معلّمة مثلها ولا تنافسها في أيّ شيء كما تفعل مع أختها ليلى، إذ إنّ البشير وزوجته أغنى منهما بكثير. غير أنّها لا تفهم لماذا كلّ هذا التعالي والغرور. صحيح أنّ بيتهما صار

www.mlazna.com-RAYAHEEN

مثل القصر وأنّ الأثاث الجديد الذي اشتريناه لم تشاهد مثله أبداً من قبل. لكنّ هذا ليس مبرّرًا كافيًا لكي تعاملها بهذه الطريقة المهينة.

ويسرى تريد أن تستغلّ هذه الفرصة الذهبيّة لتردّ عليها، وذلك بأن تبرز لها من خلال ما ستقدّمه لهما في العشاء أنّها غير راضية عنها. ثم لا بأس إن أهانتها قليلاً.

ـ عيب والله.. عيب أن نستقبل أخانا الكبير هكذا..

يقول إبراهيم قبل أن يضيف بنبرة متشكّية:

ـ صوتي بُحّ من الكلام.. ما شفت امرأة عنيدة مثلها..

كانت يسرى تجلس قبالته مطأطئة الرأس مكشوفة الذراعين. تتطلّع إليّ بعينين متعبتين. إنّها تثق بي تمامًا. وهي على يقين من أنّها تستطيع أن تعوّل عليّ في مثل هذه المسائل، فانا أقف عمومًا إلى جانبها حتى وإن كنت واثقًا من أنّ إبراهيم على حقّ. أفعل هذا لكي لا تشعر أنّي منحاز إلى أخي. ثم لأنّ الوقوف إلى جانبها يجعلها تلين وفي بعض الأحيان تتراجع إلى حدّ بعيد عن موقفها، وهكذا تُحلّ المشكلة بسرعة.

ـ تصوّر.. تريد أن تطبخ لهما مقرونة.. مقرونة فقط!.. هذا معقول؟

تقول يسرى بانفعال:

ـ ما تغيّر كلامي.. ما قلت لك مقرونة.. قلت لك مقرونة باللحم..

ـ باللحم أو بالشحم.. عيب أن نطبخ لهما حاجة واحدة..

يتناول ورقة صغيرة وقلمًا على الطاولة ويشرع في الكتابة:

ـ شوف ماذا طلبت منها..

تمدّ يسرى رأسها وتحدّق في الورقة.

ـ طلبت منها أن تطبخ مع المقرونة سلاطة مشويّة وطاجينا.. هذه هي كلّ الحكاية..

تقول يسرى بصوت عال:

ـ لا أطبخ أيّ حاجة أخرى..

ـ سكّري فمك.. أنا الذي يقرّر هنا..

ـ سأترك لك المطبخ إذن.. واطبخ لهما ما تحبّ..

يحدجها إبراهيم بنظرة حادّة، ثم ينهض فجأة دافعًا كرسيّه إلى الخلف بحركة عنيفة. ينحني عليها ويرفع يده وهو يرتجف من شدّة الغضب. أخاف أن يفقد السيطرة على أعصابه ويضربها فقد حدث أن فعل ذلك أمامي أكثر من مرّة. ينتبه إلى أنّي أراقبه بحيرة فيجلس وهو يستغفر الله. بعد لحظة يقول:

ـ لازم تنفّذي كلّ ما قلت..

ـ هذا كثير والله.. كثير عليهما.. ثم ما عندي الوقت حتى أطبخ كلّ هذه الحاجات..

يقول إبراهيم بلهجة من حسم الأمر:

ـ لا بدّ أن تطبخي كلّ ما قلت لك.. فهمت؟

تصمت يسرى للحظة طويلة كما لو أنّها امتثلت أخيراً لأمر زوجها. ثم تقول وهي تنظر إليّ لحثّي على مساندتها:

ـ عندي أشغال كثيرة.. بعد الغداء سأحمّم وائل.. وبعد سأنظّف الدار.. كلّها غبار ووسخ.. لازم تنظيف كلّ البيوت.. من مدّة ما نظّفتها..

أهزّ رأسي للتعبير عن تفهّمي لما قالته. أكتفي بهذه الحركة، ليس خوفًا من إبراهيم الذي تطلّع إليّ باستغراب، وإنّما لأنّني كنت أرى أنّ أخي على حقّ هذه المرّة، وإن كنت ضدّ هذا الاسلوب الفظّ الذي يعامل به يسرى.

ـ عائشة ستفرح لـمّا ترى دارنا وسخة كزريبة الغنم.. تريد أن تفضحنا في كلّ مكان تذهب إليه؟.. أعرفها الجرادة.. ستقول لكلّ من تقابله إنّ دارنا وسخة..

يطلق وائل الذي كان يتابع الحوار باهتمام شديد ضحكة عالية. أشعر برغبة في الضحك فقد وُفّقت يسرى في تشبيه عائشة بالجرادة ، لكنّي أتمالك نفسي. ينهر إبراهيم وائل ويقول ليسرى:

ـ أغلقي فمك..

ـ إنّي أمزح..

ـ الوقت ما هو وقت مزاح..

يرنّ هاتفه النقّال الذي كان في الصالون فيندفع واقفًا ويغادر المطبخ. يقترب منّي وائل ويضحك وهو يردّد بصوت واطئ:

ـ جرادة.. جرادة.. جرادة..

تنتقل عدوى الضحك إلى يسرى، وأنخرط بدوري في الضحك.

حين يعود إبراهيم نتوقّف عن ذلك. ويعمّ المكان صمت ثقيل. تنهض يسرى وتبدأ في إعداد فطوري. وبعد أن تقدّمه لي تغادر المطبخ. إلاّ أنّها سرعان ما تعود وتشرع في تحضير الغداء. عندما أفرغ من الاكل يسألني إبراهيم:

ـ تلفنت إلى كاترين أمس؟

أحرّك رأسي بالإيجاب. كان قد طرح عليّ السؤال البارحة وأجبته. لعلّه نسي. أو ربّما أراد أن يقول شيئًا ما لكي يضع حدًّا لهذا الصمت.

ـ لماذا لم تأت معك؟

ـ ليست في عطلة مثلي.. ولا يمكن أن تترك شغلها..

يسكت قليلاً. ثم يقول بشيء من الحماس:

ـ ما شفت في حياتي امرأة قلبها أبيض ومتواضعة مثلها!.. سبحان اللّه.. كأنّها مسلمة!..

تلتفت إليّ يسرى وتبتسم. لا أردّ على ابتسامتها خوفًا من أن ألفت انتباه إبراهيم الذي يضيف:

ـ المرّة القادمة لا تأت في هذا الوقت..لا بدّ أن تأتي في الصيف لتبقى معنا مدّة أطول.. ولازم كاترين تجيء معك.. ولازم أيضًا تأتي بسيّارة..

يسألني وائل وقد التمعت عيناه ابتهاجاً:

ـ عندك سيّارة؟

يجيبه إبراهيم:

ـ لا.. ولكن سيشتري سيّارة..

ليست هذه هي المرّة الأولى التي يتحدّث فيها إبراهيم عن السيّارة. إنّه يفعل ذلك في كلّ زيارة إلى تونس، فهو لا يفهم كيف لا أمتلك سيّارة في بلد تُعتبر فيه السيّارات مثل الحمير لكثرتها ورخصها. يسرى أيضاً تستغرب ذلك. أكّدت لهما عدّة مرّات أنّي لا أحتاج إلى سيّارة في باريس، وأنّ كاترين تفضّل الموتوسيكلات على السيّارات. لكنّهما لا يريدان أن يفهما شيئاً من ذلك. إنّ رجلاً مثلي يقيم في فرنسا منذ أعوام كثيرة، رجلاً ليس عاملاً بسيطاً مثل الكثير من هؤلاء المهاجرين الذين يغزون البلد في الصيف، بل أستاذاً ومتزوّجاً من فرنساويّة لا بدّ أن تكون له سيّارة فاخرة، وخصوصاً لا بدّ أن يأتي بها إلى تونس لا ليراها الجميع فحسب وهذا في حدّ ذاته سبب مهمّ، وإنّما أيضاً لأنّ التنقّل في تونس مرهق بدون سيّارة.

حين يسألني بعض أصدقائه عن موديل سيّارتي أو لونها أو عمرها، وهذا ما يحدث غالباً، وأجيبهم بأن ليس لديّ سيّارة تظهر على وجهه علامات الانزعاج والخجل، كما لو أنّي ارتكبت خطأ ما. بل أذكر أنّه طلب منّي في إحدى المرّات أن أحدّثهم عن سيّارة وهميّة معلّلاً ذلك بأنّي لا أكذب في الحقيقة لأنّ لديّ من المال ما يكفي لشراء السيّارة التي أريد.

يخيّم الصمت من جديد. يبدو لي أشدّ وطأة في غياب وائل الذي انتقل إلى الصالون للتفرُّج على أفلام الصور المتحرّكة في التلفزيون. يسرى منهمكة في الطبخ. أمّا إبراهيم فهو مستغرق في تأمُّل هاتفه النقّال. تنتابني رغبة في مغادرة المطبخ والعودة إلى غرفتي. غير أنّي أبقى في مكاني. كنت أخشى أن ينشب بينهما الخلاف ثانية إن تركتهما لوحدهما، خصوصاً أنّهما لا يزالان متوتّرين.

أتطلّع إلى الشارع. عدد السيّارات والحافلات التي تعبره أقلّ ممّا هو في الأيّام الأخرى. لكنّ المارّة كثيرون والعديد منهم أطفال ونساء يحملون قففاً وأكياساً مملوءة بمشترياتهم. مركز الشرطة مفتوح كالعادة. أنتبه وأنا أنظر إلى ما حوله أنّ الملصق الذي يمثّل شعار حزب «التجمّع» قد أزيل من لوح الإعلانات وحلّ محلّه ملصق آخر كبير يمثّل طفلاً جميلاً يمسك بباقة ياسمين، وكُتب تحته بخطّ غليظ: ابتسم فأنت في تونس.

إبراهيم يرقبني بحذر. لا شكّ أنّه لاحظ أنّي غير مرتاح لتصرُّفاته مع يسرى. كلّ ما فيه يوحي بأنّه غير راض عن نفسه وأنّه نادم على ما بدر منه. إنّه يلجأ إليّ كالعادة. يرجو أن أساعده قليلاً على تجاوز محنته. لا شيء تغيّر فيه منذ الصغر.

حين يسيء إلى أحد أفراد الأسرة أو أيّ واحد من أقاربنا ومعارفنا يغزوه الندم ويسعى إلى التكفير عن ذنبه. يصبح ضعيفاً ويزداد تقرّباً منّي أو من أيّ واحد من إخوتنا بحثاً عن حركة أو إشارة أو نظرة تخفّف عنه عبء ما ينتابه.

لم أشأ أن أكون قاسيًا معه بالطبع، فأنا أعرف أنَّه طيِّب القلب وأنَّه لا يقصد الإساءة إلى يسرى أو إهانتها لمَّا تصرَّف معها على هذا النحو. لكن حين ينظر إليَّ لا أمنحه ما كان ينتظر منّي وإنّما أدير رأسي إلى جهة الصالون. أردت أن يتعذَّب قليلاً لكي يحاول في المرّة المقبلة أن يتحكَّم في أعصابه. وعندما تلتقي نظراتنا ثانية أبتسم له ابتسامة خفيفة.

ينهض ويقترب من يسرى ويسألها بلهجة هادئة عمّا تعدّ لنا للغداء. تتجاهل يسرى كالعادة سؤاله. لا ينزعج أو ينفعل، فهو يعرف أنّها لن تجيبه بسهولة. يطرح السؤال ثانية وثالثة باللهجة نفسها. ولا تردّ عليه إلاّ في المرّة الرابعة بعد أن يضع يده على ظهرها بمزيج من الرقّة والحذر يشي بمدى حبّه لها.

يخبرنا وائل بأنّ ما يشاهده في التلفزيون مضحك. يحتضنه إبراهيم ويقبّله بشكل يدلّ على أنّه تجاوز محنته واستعاد الكثير من هدوئه. إلاّ أنّ وائل يفلت منه ويعود راكضًا إلى الصالون. تتوقّف يسرى عن العمل وتلتحق به. وبعد لحظات ترجع إلى المطبخ وهي تبتسم. يغمرني ارتياح عميق وأنا أرى الخصومة تتوقّف عند هذا الحدّ والأمور تعود إلى مجراها الطبيعي.

تُعدّ يسرى لإبراهيم قائمة مفصّلة بكلّ ما ينبغي أن يشتريه للعشاء. ثم تقرأها عليه بصوت عالٍ لكي لا ينسى منها شيئًا، فهي حريصة على أن يكون كلّ ما تطلبه جاهزًا منذ الصباح لتنتهي من هذه المشكلة كما تقول وتتفرَّغ لمشاغلها الأخرى.

لا يناقشها إبراهيم في أيّ شيء. يتناول القائمة دون أن ينبس بكلمة. ويدسّها في جيبه.

حالما يخرج تجلس قبالتي وهي تسوّي حجابها. وفيما كنت أفكّر في ما يمكنني أن أقول لها في تلك اللحظات أفاجأ بها تخرج سيجارة من علبة إبراهيم التي تركها على الطاولة. تشعلها وتشرع في تدخينها. تعقد الدهشة لساني. تنظر إليّ وتضحك. تدخّن جزءًا صغيرًا من السيجارة وهي لا تتوقّف عن النظر إلى الصالون خوفًا من أن يراها وائل. ثم تطفئها وتلقي بها إلى الخارج من خلال النافذة بعد أن بلّلتها بالماء. تمضمض فمها طويلاً. ثم تقول وهي تعود إلى عملها:

ــ ما أعرف امرأة عندها الزهر والحظّ مثل عائشة!.. مرّة أخرى تغلبني.. الجرادة.. لكن سيجيء يوما.. وسترى ما سأفعل لها..

www.mlazna.com
^RAYAHEEN^

-٨-

السهرة مع أخي الأكبر وزوجته التي كنت أتخوَّف منها مرّت بسلام، بل يمكن القول إنَّها كانت رائقة إلى حدّ ما. أعدَّت لنا يسرى ثلاثة أطباق كما أراد إبراهيم. وقد كانت كلّها شهيّة. أمّا المواجهة السرّيّة التي كنت أنتظرها بين عائشة ويسرى فإنّها لم تحدث لحسن الحظّ. والفضل في ذلك لا يعود إلى جودة العشاء فحسب وإنّما أيضاً إلى أنّ عائشة أهدت وائل لعبة جميلة اشترتها من مالها الخاصّ كما أكّدت أكثر من مرّة. وهي عبارة عن سيّارة مرسيدس حمراء نالت إعجاب وائل وأمّه وأبيه على حدّ سواء.

فور وصولهما تنادي عائشة وائل الذي لا يجرؤ على الاقتراب منها. تداعب شعره. ثم تجلسه في حجرها وتسلّمه الهديّة التي لم يكن يتوقّعها أحد. وقد أشاع ذلك كثيراً من الارتياح في البيت منذ البداية. وائل لم يعد يفارقها لفرحه الشديد بالهديّة.

وإبراهيم الذي كان متوتّرًا قليلاً، ومقتصدًا في ترحيبه بهما احترامًا لمشاعر يسرى، وجد في الهديّة ذريعة لينبسط ويصبح أكثر لطفًا واهتمامًا بزائريه. أمّا يسرى فقد تغيّرت تمامًا. صارت الابتسامة لا تفارق شفتيها، ولا تكفّ عن التحدّث إليهما بمودّة واضحة وتقديم كلّ ما لديها من مشروبات لهما.

بعد قليل من الاستراحة يصرّ البشير على أن ننزل جميعًا لكي نتفرّج على سيّارته الجديدة قبل أن يحلّ الليل وينتشر الظلام.

السيّارة التي اشتراها منذ بضعة شهور من عامل مهاجر يقيم في ألمانيا فاخرة وجميلة حقًّا، فهي موديل حديث من مرسيديس لم ينتشر بعد في تونس ويشبه موديل السيّارة التي أهدتها عائشة إلى وائل. يفتح البشير كلّ أبوابها لكي نراها جيّدًا من الداخل. وبعد أن يصف لنا المتعة الهائلة التي يحسّ بها عندما يكون داخلها يقترح علينا أن نركبها وأن نقوم بجولة صغيرة في الحيّ.

لم تكن الحركة شديدة في شارع أبي القاسم الشابي في مثل تلك الساعة. حين نبتعد عن مركز الشرطة يضاعف البشير من سرعة السيّارة، غير عابئ بملاحظات زوجته التي كانت ترجوه أن يقود بحذر وتمهّل. نعبر عددًا من الشوارع. وفي طريق العودة تطلب يسرى من البشير وهي تضحك أن يعبر الشارع الذي تسكن فيه ليلى، وأن يخفض كثيرًا من السرعة حين نمرّ بالعمارة لكي ترى أختها المرسيدس فتتألّم قليلاً وتكفّ عن التباهي بسيّارتها. ينفّذ البشير طلبها. بل إنّه يوقف السيّارة للحظة طويلة مقابل العمارة ويطلق زمّورها مرّتين. تطلّ رؤوس كثيرة من نوافذ الشقق المجاورة لكن لا يظهر أحد من شقّة ليلى.

يركن البشير السيّارة على بعد أمتار قليلة من مدخل الحديقة التي توجد فيها العمارة لكي يستطيع مشاهدتها من نافذة المطبخ.

نصحه إبراهيم بذلك لأنّ سرقات السيّارات الفاخرة كثيرة في الحيّ، كما أنّ التخريبات التي تتعرّض لها من قبل الحسّاد والمتشرّدين والسكارى تزايدت في الأعوام الأخيرة. وهو لا يريد بالطبع أن يحدث هذا لسيّارته. لا يريد أن يخدشها أحد بطرف مسمار أو مفتاح أو يهشّم زجاجها أو يلوّثها، أو ينتزع علامة الماركة المثبّتة في مقدّمتها، أو يكسرها؛ فالمرسيدس بدون هذه العلامة المميّزة تفقد شيئًا من جمالها وأبّهتها كما يقول.

يستغرق العشاء وقتًا طويلاً. عندما نفرغ منه ونعود للجلوس على الكنبة لشرب الشاي يسألني البشير:

ـ وفرنسا.. كيف حالها الآن؟

كنت أنتظر سؤالاً من هذا القبيل؛ ففي كلّ مرّة التقيه يحدّثني عن فرنسا.. إنّه البلد الاوروبي الوحيد الذي يعرفه فقد أقام فيه حوالي عامين في فترة شبابه. لمّا تخرّج من الجامعة سافر على الفور إلى فرنسا لإكمال دراسته للهندسة الزراعيّة.

كان طموحًا وكان يريد أن يصبح مهندسًا كبيرًا. إلاّ أنّه انقطع عن الدراسة لأنّه لم يتحمّل الغربة، ولأنّ الحياة في أوروبا صعبة وشديدة التعقيد كما يقول. تخلّى عن حلمه مثلما تخلّيت أنا فيما بعد عن حلمي في أن أصبح دكتورًا. وعاد إلى تونس.

كانت الأعوام الأولى التي تلت عودته صعبة خصوصاً أنّه قبل أن يشتغل مهندساً مساعداً، وهو ما كان يرفضه قبل أن يتخلّى عن حلمه. إلاّ أنّه استطاع أن ينسى فشله بمرور الأيّام. ولعلّ ما ساعده على ذلك هو أنّه تعرّف على عائشة التي وقع في حبّها فتزوّجها ثم انخرط في حزب «التجمّع» تحت تأثيرها كما يقال. وشيئًا فشيئًا صار يدافع عن مبادئ الحزب بعد أن كان من أكثر الناس نفوراً منه. وبعد فترة قصيرة تمكّن، بثقافته وذكائه وتفانيه، من أن يصبح واحداً من أبرز أعضائه المحلّيّين. وتزامن هذا التحوُّل الكبير في أفكاره مع تحوُّل آخر في حياته، فقد استطاع الحصول على قرض كبير من البنك بمساعدة مسؤول الحزب في المنطقة، ففتح مدجَنة تطوَّرت بسرعة عجيبة وصارت أكبر مدجنة في منطقة باجة، حتى أنَّ البعض أصبح يسمّيه «البشير دجاج»..

أحيانًا أشعر حين يسألني عن فرنسا أنّه لا يفعل ذلك لأنّه لا يزال يهتمّ بهذا البلد ويرغب في معرفة ما يحدث فيه، وإنّما لأنّه يريد أن يذكّرني ويذكّر كلّ الذين حولنا أنّه يعرف هو أيضاً فرنسا وأنّه هو أيضاً سافر إلى أوروبا وأقام فيها في فترة كان العيش فيها يُعدّ مغامرة.. لذلك أتردّد قليلاً قبل أن أقول بلا اكتراث:

ـ فرنسا.. كعادتها..

ـ أي ما زلتم تدفعون ضرائب كثيرة؟

يضحك قبل أن يضيف متوجّهًا بالكلام إلى إبراهيم:

ـ هذه البلاد عجيبة!.. كلّ ما تكسبه يأخذونه منك..

أتذكّر أنّه تحدّث في آخر مرّة التقيته فيها عن موضوع الضرائب الذي يشغل باله على ما يبدو. أقول له:

ـ في كلّ بلاد ثمّة ضرائب..

ـ لكن الضرائب في فرنسا كثيرة ومرتفعة.. الأمور عندنا أفضل..

يقول إبراهيم باهتمام:

ـ أفضل؟.. كيف أفضل؟..

ـ في تونس لا يراقبونك في كلّ شيء كما في فرنسا.. ولا يحاسبونك على كلّ ملّيم تكسبه..

ينتظر أن نقول شيئًا. وحين يرى أنَّ صمتنا طال يتابع:

ـ أنا لا أصرّح بكلّ ما أكسب.. أعترف بذلك.. لو فعلت كما يفعلون في فرنسا لما كسبت شيئًا..

يسأله إبراهيم في دهشة:

ـ ولا تخاف من الحكومة؟

ـ أخاف؟.. ولماذا أخاف؟.. كلّ الناس في تونس يفعلون مثلي.. ذات يوم زارني مفتّشو الضرائب.. كنت قد نسيتهم.. ما شفتهم من أكثر من عشر سنين.. أخذوا منّي كلّ الدفاتر.. وبعد أن دقّقوا في حسابات المدجَنة ظهر أنّه عليّ أن أدفع عشرين مليونًا.. زيادة بالطبع على ما كنت أدفعه كلّ عام..

ـ عشرين مليونًا!.. عشرين مليونًا!..

يردّد إبراهيم وهو يتفرّس فينا بعينين واسعتين.

ـ آ.. عشرين مليونًا.. في ذلك الوقت كنت أكسب كثيراً من المدجنة.. ما كانت هناك مداجن كثيرة في المنطقة كما اليوم..

أخذت منهم الأوراق وما نطقت بكلمة واحدة.. لكن تعرف كم دفعت فيما بعد.. خمسة ملايين.. آ.. خمسة فقط.. وأُغلق الملفّ..

يسأله إبراهيم مازحاً:

ـ وماذا فعلت لهم.. حتى تصير العشرين مليونًا خمسة؟.. سحرتهم؟..

يقول وهو يشير إلى كتفيه بشيء من التباهي:

ـ تدخّل لصالحي أصحاب النفوذ.. الأوامر جاءت من فوق..

أقول له بنبرة لم أتمكّن من التخفيف ممّا يشوبها من انفعال:

ـ لو كنت في فرنسا لما اكتفوا بأخذ العشرين مليونًا.. يزيدون عليها عشر المبلغ لأنّك تأخّرت في الدفع.. ويمكن أن يدخلوك الحبس.. لأنّك سرقت أموال الدولة..

يقول ضاحكًا:

ـ أموال الدولة!.. فرنسا بلاد عجيبة غريبة..

تبدأ يسرى وعائشة في حمل ما تبقّى على الطاولة من أوان إلى المطبخ. أندم على أنّي تحمّست أكثر من اللازم وخاطبته بنبرة فيها شيء من الحدّة. لكنّي أدرك بعد لحظة أنّه لم يكن مستاء أو حتى منزعجًا ممّا قلته له، فقد سأل إبراهيم قبل أن يلتفت إليّ مبتسمًا:

ـ وماذا جلب لكم من فرانسا؟..

تسمع يسرى السؤال فتجيبه بافتخار:

ـ هدايا كثيرة..

أشعر بالحرج لأنّي لم أجلب له ولا لزوجته ولا لأيّ واحد من أبنائه الذين بقوا في باجة أيّ شيء، إذ لم يكن في نيّتي أن أزورهم هذه المرّة، كما لم أكن أتوقّع أن ألتقي أيّ واحد منهم في تونس. يقوم إبراهيم فجأة ويغادر الصالون ليعود بعد برهة بثلاث علب سجائر من تلك التي أهديته إيّاها ويعطيها له.

ـ يكثّر خيرك..

يقول لي البشير وهو يخرج سيجارة من إحدى العلب. يضيف بعد أن يشرع في تدخينها:

ـ ما ثمّة شعب في هذه الدنيا كالأميركان.. كلّ شيء عندهم ممتاز.. حتى سجائرهم حلوة أبناء الكلب.. مشكلة الأمريكان الوحيدة هي سياستهم مع العرب والمسلمين..

بعد لحظة يميل على إبراهيم ويقول:

ـ لكنّ الفرنسيس عندهم شيء رائع..

يهمس في أذنه بعد أن ينظر إلى المطبخ ليتأكّد من أنّ يسرى وعائشة منهمكتان في غسل الأواني:

ـ النساء.. نساؤهم حلوات.. وسهلات..

يتوقّف وائل عن اللّعب بسيّارته ويسأل:

www.mlazna.com-RAYAHEEN

- ما معنى سهلات؟

ننفجر الثلاثة ضاحكين. يتطلّع إلينا قليلاً ويقول وهو يبتسم:

- وكاترين أيضًا.. سهلة؟

يردّ عليه البشير بلهجة جادّة:

- كاترين ما تشبه نساء فرانسا.. كاترين.. تبارك اللّه.. امرأة وعليها الكلام..

وحين ينهمك وائل من جديد في اللعب يلتفت إليّ ويقول:

- ما شفت في حياتي فرنساوية مثل كاترين..

كنت أعرف أنّه يحبّ كاترين. وقد عبّر لي عن ذلك أكثر من مرّة. عائشة أيضًا تحبّها بالرُّغم من أنّها قالت ليسرى ذات يوم إنّها تجدها غير جميلة وإنّه كان باستطاعتي أن أتزوّج امرأة أجمل منها بكثير لو لم أهاجر. لكنّه يبالغ هذه المرّة في مدحها للتأكيد على أنّها ليست مثل الفرنسيّات اللاتي كان يتحدّث عنهنّ.

أبتسم ولا أقول شيئًا. لقد سبق أن سمعت عدّة مرّات كلامًا من هذا النوع عن الفرنسيّات وعن الأوروبيّات عمومًا. بل هناك من يرى أنّهنّ فاسدات ولا يتورّعن عن ارتكاب الفاحشة مع أيّ رجل يعجبهنّ. يخيّم الصمت. كان واضحًا أنّ البشير لا يزال يشعر بشيء من الحرج. وكان حرجه هذا يضايقني ويضايق إبراهيم أيضًا على ما يبدو.

أملّ الجلوس، فأقوم وأتوجّه إلى غرفتي. كنت في حاجة إلى استنشاق قليل من هواء الليل. أفتح النافذة على مصراعيها وأمدّ رأسي

فأشاهد نعيمة في نافذتها. رأسها ملفوف بمنشفة. وكانت ترتدي فستانًا عريضًا يشبه البيجامة. أشمّ رائحة تبغ. أزداد انحناء فأكتشف أنّها تمسك بسيجارة في يدها اليمنى. أغلق النافذة. ثم أعود إلى الصالون. يسرى وعائشة تجلسان بين زوجيهما متقاربتين كما لو أنّهما صديقتان حميمتان. فجأة تستدير يسرى إلى البشير وتقول له:

- مبروك..

- مبروك!.. مبروك ماذا؟..

- الحجّ.. سمعت أنّك ستحجّ..

يحدج البشير زوجته بنظرة باردة ويقول:

- كنت متأكّدًا من أنّها لا تقدر تحافظ على السرّ..

- سرّ؟.. متى صار الحجّ سرًّا؟

تتساءل عائشة قبل أن تضيف:

- الذي ينوي الحجّ لا يخفي هذا على الناس.. بالعكس.. لا بدّ أن يعلن الخبر في كلّ مكان.. ثمّة شيء أحسن من الحجّ؟..

الناس يفتخرون بالحجّ.. ستكون أوّل حاجّ في العائلة.. وإبراهيم ويسرى من العائلة.. و ما يلزم نخفي عنهما حاجة مهمّة كالحجّ..

يسأله إبراهيم:

- ومتى تنوي الحجّ؟

- العام القادم إن شاء اللّه.. الأمر يتوقّف على المدجنة.. الدخل ما عاد كما كان..

تقول له يسرى:

ـ احمد الله على نعمته.. دائمًا تتشكّى.. اشتريت سيّارة مرسيدس لا يقدر على شرائها إلاّ الوزراء.. والعام القادم ستحجّ.. ومع ذلك تتشكّى!..

يتمتم البشير وهو يمرّر راحة يده على وجهه:

ـ الحمد لله..

بعد وقت قصير يتطلّع إلى ساعته اليدويّة. ثم يندفع واقفًا.

ـ لا بدّ أن نذهب الآن.. الوقت متأخّر..

يستغرق التوديع وقتًا أطول بكثير من الاستقبال. تقبّل يسرى عائشة مطوّلاً، راجية إيّاها أن يزوراهما مع الأطفال في أقرب وقت ممكن. ويمسك وائل بيد عمّه ثم بيد عائشة ولا يفارقهما إلاّ حين يهمّان بالخروج. أمّا إبراهيم فقد أصرّ على أن ينزل معهما ويرافقهما إلى حيث توجد السيّارة.

تصطحب يسرى وائل إلى فراشه. وحين تعود تجلس بجانبي وتنظر إليّ. أشعر أنّها ترغب في الحديث معي عن الزيارة.

لم تكن لديّ أيّ رغبة في ذلك. الشيء الوحيد الذي كنت أرغب فيه آنذاك هو أن أصمت وأن أكون وحيداً. أنهض وأتوجّه إلى غرفتي.

ـ ٩ ـ

أحسّ بالغبطة حين تطأ قدماي من جديد ساحة برشلونة بعد يومين كاملين قضيتهما في حيّ البساتين. أتجنّب شارع الحبيب بورقيبة وأتوغّل في الشوارع الخلفيّة. أقضي كلّ الصباح هناك. أتجوّل طويلاً في أمكنة لم أتردّد عليها منذ سنين كثيرة، وأجلس في مقاه وحانات صغيرة أدخلها لأوّل مرّة. وحين أشعر بالجوع لا أتردّد لحظة واحدة في دخول أحد المطاعم الشعبيّة الصغيرة والتي لا طاولات فيها ولا كراسي لتناول وجبة سريعة واقفًا مثل الجميع.

وبعد الظهر، بدلاً من أن أعود إلى حيّ البساتين، وهو ما كنت أنوي القيام به، أقصد محطّة القطارات المتوجّهة إلى ضاحية الشمال. لقد غيّرت رأيي لأنّي شعرت فجأة برغبة قويّة في أن أرى البحر الذي لم أشاهده منذ فترة طويلة. في المحطّة أشتري تذكرة إلى آخر محطّة وأركب القطار. لم تكن لديّ أيّ وجهة محدّدة. كنت أعرف أنّ

القطار يتوقّف في كلّ البلدات الصغيرة المتلاصقة الواقعة على ساحل البحر، بدءاً بحلق الوادي، وانتهاء بالمرسى لذلك فإنّ باستطاعتي أن أنزل متى أشاء في أيّ واحدة منها.

عندما ينطلق القطار يغمرني فرح طفولي، فأنا أحبّ القطارات القديمة. نترك تونس خلفنا. وبعد مسافة قصيرة تختفي المباني بينما أخذ مشهد الماء في البحيرة التي على يسارنا والقناة التي على يميننا يطغى على كلّ ما حولنا. أغلب النوافذ مفتوحة. والهواء المحمَّل برائحة البحر يعبث بشعور النساء الجالسات أمامي واللاتي كنّ يختلسن النظر إليّ بين الحين والآخر، وهنّ يتشبَّثن بحقائبهنّ اليدويّة الموضوعة في حجورهنّ كما لو أنّهنّ يخشين أن تُنتشل منهنّ في أوّل لحظة يغفلن فيها عن مراقبة ما يحدث حولهنّ.

أقضي ما تبقّى من اليوم في ضاحية الشمال. كان في نيّتي أن أنزل في سيدي بوسعيد وأبدأ جولتي من هناك. لكنّي غيَّرت رأيي لـمّا تذكّرت أنّ السيّاح يتردّدون كثيراً على هذه البلدة، خصوصاً في مثل هذا الوقت ويحتلّون كلّ مقاهيها وشوارعها وأزقّتها. أنزل في الكرم. وبعد أن أملّ التجوُّل فيها أنتقل إلى قرطاج. كنت وحيداً وكنت سعيداً بوحدتي. لم أكلّم أحداً. ولم يكلّمني أحد.

كان الليل قد هبط عندما عدت إلى تونس. كنت متعبًا من كثرة التجوال. لم أجد ما يكفي من الشجاعة للتوجُّه إلى ساحة برشلونة حيث محطّة الحافلات المتوجِّهة إلى حيّ البساتين، فاضطررت أن أركب واحدة من سيّارات التاكسي التي كانت تصطفّ أمام محطّة القطارات في انتظار القادمين من ضاحية الشمال. يسألني السائق عن وجهتي

بصوت عال حين رآني أتقدَّم من سيّارته. أجيبه فيقول لي إنَّه أنهى شغله ويعتزم العودة إلى بيته. وهو يبحث عن زبون يودّ الذهاب إلى الحيّ الذي يقيم فيه.

أتركه وأتوجَّه إلى سيّارة أخرى. لكنَّه يلتحق بي ليقول لي إنّ باستطاعتي أن أستقلّ سيّارته لأنّ حيّ البساتين ليس بعيداً عن حيّه. أحرّك رأسي موافقًا، فسيّارته نظيفة كما أنّ سائق السيّارة الأخرى بدا لي متقدِّمًا في السنّ بالنسبة لسائق تاكسي خصوصاً في الليل. عندما أفتح باب السيّارة الخلفي يأمرني بالجلوس إلى جواره لأنّ المقعد الخلفي غير نظيف وهو غير جاهز على أيّ حال إذ إنّه كدَّس عليه علبًا وأكياساً تحتوي على ما اشتراه طوال اليوم. أنفِّذ أمره دون أن أقول شيئًا بالرُّغم من أنّي أفضِّل الجلوس على المقعد الخلفي.

تنطلق السيّارة في اتّجاه شارع الحبيب بورقيبة. وعند أوّل ميدان تنعطف إلى اليسار. وبدلاً من أن تسلك الشارع الذي تسلكه كلّ السيّارات المتوجِّهة إلى ضاحية الجنوب حيث حيّ البساتين، تدخل في أزقّة وشوارع ضيِّقة. يعنّ لي أن أسأله عن السبب. لكنّي لا أفعل لأنّي لم أكن متأكِّداً من أنّ الطريق الذي اختاره أطول من الطريق المعتاد كما شعرت من خلال مظهره وهيئته أنّه ليس من سائقي التاكسيّات المحتالين.

وعند وقوفه أمام أوّل إشارة للضوء الأحمر يخرج شريطًا من علبة كانت تحت مقعده ويدسّه في المسجل فيتعالى صوت فريد الأطرش مردِّدًا أغنية «بساط الريح». أحبّ فريد الأطرش. وأعشق مثل كلّ التونسيِّين «بساط الريح» وقد غمرتني بهجة حقيقيّة لـمّا ارتفع صوت

www.mlazna.com-RAYAHEEN

فريد فجأة بهذه الأغنية القديمة التي لم أستمع إليها منذ فترة طويلة. لكنّ المشكلة هي أنّ أذنيّ لم تحتملا الاستماع أكثر من بضع ثوان فقد كان الصوت مرتفعًا أكثر من اللازم. وممّا زاد الطين بلّة هو أنّ مضخّم الصوت الوحيد في السيّارة يوجد مقابل مقعدي تمامًا. التفت إلى السائق عدّة مرّات لكي ينتبه إلى أنّي متضايق، غير أنّ هذا لا يجدي نفعًا. وحين يردّد فريد:

تونس أيا خضراء　　　يا حارقة الاكباد
غزلانك البيضاء　　　تصعب على الصياد

يرفع السائق الصوت ويغنّي معه بصوت غليظ وهو يخبّط على المقود بيده اليمنى خبطات خفيفة لمجاراة إيقاع الأغنية. بعد تردّد أتجرّأ وأطلب منه أن يخفض الصوت قليلاً. يتوقّف عن الغناء. ويظلّ للحظة صامتًا. ثم يسألني بلهجة مهذّبة:

ـ أنت مريض؟

أجيبه بالنفي فيقول باستغراب:

ـ لماذا أخفض الصوت إذن؟.. أنت أوّل شخص يطلب منّي أن أخفض الصوت.. الناس يطلبون أن أزيد في الصوت لـمّا يغنّي فريد «بساط الريح»..

يشعل اللمبة المثبّتة في سقف السيّارة فوق رأسينا. ينظر إليّ قليلاً. ثم يسألني وهو يطفئها:

ـ لا تحبّ فريد الاطرش؟

ـ أحبّه كثيرًا.. أحبّ معظم أغانيه.. وخاصّة هذه..

ـ إذن لا تحبّ تونس..

وبحركة سريعة مباغتة تمتدّ يده إلى المسجّل ويطفئه. يخرج الشريط ويلقي به في العلبة التي تحت مقعده بشكل يدلّ على أنّه منزعج ممّا بدر منّي. أشعر بالحرج كما ينتابني قليل من الانفعال بسبب تصرّفه. إلاّ أنّي ألتزم الصمت. يسكت بدوره. ويزيد من سرعة السيّارة.

وفي كلّ مفترق طرق صرت أحسّ بالخوف لأنّه لم يعد حذرًا ولا يخفض من السرعة إلاّ إذا كان هناك شرطي. أندم على أنّي فضّلته على السائق الآخر. لكنّي أقرّر ألاّ أعير الامر أيّ اهتمام؛ فالمهمّ هو أنّه أراحني من الضجيج وإن كنت أحسّ برغبة حقيقيّة في مواصلة الاستماع إلى الأغنية لكن بصوت غير مرتفع. ثم إنّ المسافة التي تفصلنا عن حيّ البساتين غير طويلة. وبعد وقت قصير سينتهي كلّ شيء. وحالما أميل برأسي على زجاج النافذة لمتابعة ما يحدث في الخارج أفاجأ به يسألني:

ـ أنت جزائري؟

ـ لا..

ـ ليبي إذن..

أدرك على الفور لماذا يعتبرني ليبيًّا، فقد قلت له منذ حين شكرًا بدلاً من مارسي عليك. وفي تونس كلّ من يستخدم في حديثه كلمات من الفصحى يعتبرونه ليبيًّا.

ـ أنا تونسي.. لكن أعيش في الخارج..

- ظننت أنّك جزائري.. الجزائريّون رجال وكرماء.. كلّ صيف يأتون بالآلاف للتمتّع ببحرنا وشواطئنا.. لكنّهم لا يحبّون تونس.. بالطبع لا يظهرون هذا.. ولكن أنا متأكّد أنّهم لا يحبّوننا.. أنا خالطت الجزائريّين كثيرًا.. وأعرفهم كما أعرف التوانسة..

يصمت للحظة طويلة، ثم يستدير إليّ كما لو أنّه ينتظر أن أعلّق على كلامه. غير أنّي ألتزم الصمت فأنا على يقين من أنّه واثق ممّا يقول ومقتنع به تمامًا إلى درجة أنّني لا أرى أيّ جدوى من الحديث معه في موضوع مثل هذا، وهو على ما يبدو من المواضيع المفضّلة لدى سائقي التاكسيّات ومن شابههم كالحلاّقين وندل المقاهي والمطاعم.

- تعرف لماذا؟.. لأنّ تونس ناجحة.. تونس صغيرة.. أصغر من الجزائر بعشر مرّات.. وتونس ما عندها لا بترول ولا غاز.. ومع ذلك ناجحة.. بفضل العقل.. تونس عندها المادّة الشخمة كما يقول بورقيبة اللّه يرحمه ويرحم الأمّ التي ولدته..

كنت أتصوّر أنّ صمتي وعدم اكتراثي الواضح لما كان يقول سيدفعانه إلى التوقّف عن الحديث. إلاّ أنّه لا يفعل.

- وأين تعيش؟..

- في فرانسا..

- آ.. فهمت الآن لماذا طلبت منّي أن أخفض الصوت.. صرت كالفرنسيس.. ما ثمّة من هو أصعب من الفرنساوي.. في كلّ مرّة يركب معي سائح فرنساوي ما أكون مرتاحًا.. يحبّون أن يكون كلّ شيء نظيفًا ومرتّبًا كما في بلادهم.. ولا يحبّون أن يسمعوا أيّ شيء.. مثلك..

أستنتج من تبدّل نبرته ومن حركاته الكثيرة وطريقته في الالتفات إليّ أنّ انزعاجه قد تناقص إلى حدّ كبير، فأحسّ بقليل من الارتياح.

- لاحظت أيضًا أنّ الفرنسيس مشحاحين.. أنا أحبّ الفرنسيس.. واللّه العظيم.. لكن هذه هي الحقيقة.. قبل أن يدفعوا ينظرون دائمًا إلى العدّاد.. ولمّا أعيد لهم بعض الملّيمات يأخذونها.. الألمان والبلجيك والإسبان والطلاين وحتى الروس والبولونيّون الذين صاروا يأتون إلى تونس في السنين الأخيرة لا يأخذونها..

نترك طريق الجنوب، وتنطلق السيّارة في الطريق المؤدّي إلى حيّ البساتين. ينخفض عدد السيّارات وتتناقص الأضواء، تاركة مكانها للظلام. أحدّق في ما كان يظهر لي من المباني التي تقوم على جانبي الطريق وأنا أفكّر في أنّ الأمور تمرّ بسلام في النهاية؛ فبعد وقت قصير سأكون في بيت أخي وسأنسى كلّ ما حدث في سيّارة التاكسي. بغتة يدوس السائق بقوّة على الفرامل فتنزلق العجلات على الطريق محدثة صوتًا حادًّا. يوقف السيّارة على اليمين. ويقول وهو يستوي في جلسته:

- البوليس.. البوليس.. يا ربّي استر.. ما شفته إلاّ في آخر لحظة..

ولم أكد أسأله عمّا يقصد حتى شاهدت على الضوء الخافت القادم من المبنى القريب شرطيًّا يقترب من السيّارة. كنت أتصوّر أنّ الأمر مجرّد عمليّة مراقبة للتثبّت من أوراق التاكسي. لكنّني أفاجأ

بالشرطي ينحني عليّ ويشير لي بأن أفتح النافذة. يسلّط عليّ ضوء مصباح كهربائي كان في يده ويطلب منّي بطاقة التعريف. قدّمت له البطاقة وأنا لا أصدّق ما يحدث أمامي. لم أكن أتصوّر على الإطلاق أنّ الشرطة توقف سيّارات التاكسي للتثبّت من هويّة الركّاب. يتطلّع الشرطي طويلاً إلى البطاقة. ثم يسألني:

ـ تونسي؟

أقول بانفعال لم أتمكّن من السيطرة عليه:

ـ ما شفت في البطاقة أنّي تونسي؟

ـ لا تتكلّم معي بهذه اللهجة.. وإلاّ سأوجّه إليك تهمة الاعتداء على عون أمن أثناء القيام بواجبه وعرقلة مهمّته.. فهمت؟..

أجب عن سؤالي.. أنت تونسي؟..

ـ آ.. تونسي..

ـ وتعيش في فرنسا؟

ـ نعم..

ـ مهنتك؟

ـ أستاذ..

لا أدري لماذا طرح عليّ هذه الأسئلة، فكلّ المعلومات التي كان يريد الحصول عليها مسجّلة في البطاقة. يسلّط ضوء مصباحه من جديد على وجهي.

ـ أستاذ ماذا؟

ـ تاريخ وجغرافيا..

ـ متى أتيت إلى تونس؟

ـ قبل عشرة أيّام؟

ـ ومتى زرتها آخر مرّة؟

ـ قبل خمس سنين..

يتفحّص ثانية البطاقة. ثم يقول بلهجة هادئة:

ـ هذه المرّة أسامحك.. المرّة القادمة لا تتصرّف كما تصرّفت الآن.. أنصحك بأن تكون مهذّبًا مع الشرطة.. وأن تجيب عن كلّ سؤال.. نحن لسنا في فرنسا.. فرنسا شيء.. وتونس شيء.. تونس ليست بلاد فوضى.. تونس بلاد نظام وأمن.. فهمت؟..

أحرّك رأسي. يعيد لي البطاقة. ويشير للسائق بأن يواصل طريقه. تعود السيّارة إلى السير. نقطع كلّ المسافة المتبقّية في صمت. لم أكن منفعلاً بل كئيبًا. يلتفت إليّ السائق مبديًا رغبته في الحديث معي. بيد أنّي أتجاهل ذلك وأنطوي على نفسي. وعندما تتوقّف السيّارة أمام مدخل حديقة العمارات يقول السائق:

ـ لا بدّ أنّ أمّك دعت لك بالخير.. احمد اللّه على أنّه تركك..

يتناول منّي الورقة الماليّة. ويشعل اللمبة التي فوق رأسه ويضيف فيما كان يبحث عن النقود التي سيعيدها إليّ:

ـ ذات مرّة أوقفوني.. كانوا ثلاثة.. وكان معي طالب في الجامعة.. أنزلوه من السيّارة.. ولما سألهم عن السبب هجموا عليه

كالوحوش وأخذوا يضربونه.. على رأسه.. وعلى بطنه.. وعلى صدره.. وبعد ما فشّوا فيه غيظهم حملوه معهم..

البوليس التونسي صعب.. ما معه لعب.. مسكين الذي يسقط بين يديه..

لا أتثبّت من النقود التي أعادها إليّ ولا أنظر حتى إلى العدّاد. لا أحاول أن أعرف ما إذا كان قد استغلّ الحالة النفسيّة التي كنت فيها ليغشّني. أدسّها في جيبي. وأنزل من السيّارة. وفي الممرّ الذي يشقّ الحديقة أتوقّف وأشرع في التطلّع إلى السماء.

www.mlazna.com
^RAYAHEEN^

- ١٠ -

تطلب منّي يسرى بإلحاح أن أشاهد معهما الحلقة الجديدة من المسلسل المكسيكي. طوال الوقت الذي يستغرقه تناول العشاء تروي لي بحماس الحكاية من أوّلها، لكي أفهم ما سيحدث في الحلقة الجديدة التي تتوقّع أن تكون أجمل بكثير من الحلقات السابقة؛ فالحكاية ازدادت إثارة وتشويقًا والصراع بين الأبطال بلغ ذروته. أستجيب لطلبها بالرغم من أنّي أكره المسلسلات، مصريّة كانت أم مكسيكيّة أم تركيّة.

الحقيقة أنّ فكرة مشاهدة المسلسل التي ما كانت لتخطر ببالي لو لم تطلب منّي يسرى ذلك أعجبتني. بدا لي آنذاك أنّ أفضل وسيلة للقضاء على الكآبة التي انتابتني منذ حادثة البوليس، أو التخفيف منها على الأقلّ، هو ألاّ أحبس نفسي في الغرفة وهو ما كنت أرغب فيه وإنّما أن أقضي السهرة أو جزءاً كبيراً منها معهم في الصالون، وأن أتفرّج على منوّعة غنائيّة أو مسلسل أو شيء من هذا القبيل.

يصرّ إبراهيم على أن يترك لي المكان الذي يفضّل أن يحتلّه على الكنبة حين يشاهد برنامجًا يحبّه. وهو يقع في طرفها مقابل جهاز التلفزة تمامًا. ولكي نستمتع حقًّا بالمشاهدة تقدّم يسرى لكلّ واحد منّا قطعة كبيرة من الكعكة التي أعدّتها بعد الظهر، قبل أن يبدأ المسلسل لأنّ إبراهيم لا يتحمّل أن يتحرّك أحد حين يكون مستغرقًا في المشاهدة.

المسلسل مثل بقيّة هذا النوع من المسلسلات. غرام وانتقام. حسد وغيرة. سيّارات فاخرة. بيوت فخمة. أمّا الممثّلون والممثّلات فهم كالعادة على قدر كبير من الجمال والأناقة والوسامة. هناك بالطبع قليل من العري والإثارة. نظرات وعبرات. قبلات أو ما شابهها وخيانات زوجيّة، وعلاقات تُقام في الحرام من المفروض أن تصدم أناسًا متديّنين مثل يسرى المحجّبة وإبراهيم الذي يصطحب ابنه كلّ يوم جمعة إلى الجامع لكي يؤدّي معه الصلاة. المسلسل أبعد ما يكون عن عالم أخي وزوجته. ومع ذلك فإنّهما يُقبلان على مشاهدته دون تردّد، والأغرب من ذلك يجدان متعة هائلة في ذلك.

كنت قد عزمت على أن أشاهد الحلقة باكملها وهي تدوم كما أكّدت لي يسري أربعين دقيقة. طردت من ذهني كلّ الأفكار التي كانت تراودني، وركّزت كلّ اهتمامي على الأحداث. بذلت أيضًا جهدًا هائلاً في الإصغاء لكي لا تفوتني أيّ كلمة، كما كنت أنظر إلى وجوه الممثّلين والممثّلات بانتباه كبير لكي أستطيع التمييز بينها فأنا أخلط دائمًا بينها في هذا النوع من المسلسلات، وخصوصًا بين وجوه النساء التي تتغيّر كثيرًا بتغيير تسريحة الشعر أو طريقة الماكياج.

ومع ذلك أفشل في الاستمرار في المشاهدة. شيئًا فشيئًا يتسلّل إليّ الملل ولا أعود قادرًا على المتابعة، رغم كلّ التشجيعات التي ألقاها من إبراهيم، وخصوصًا من يسرى التي كانت تميل عليّ بين وقت وآخر وتهمس في أذني ببعض ما حدث في الحلقات السابقة، ونسيت أن تقوله لي منذ حين لـمّا روت لي حكاية المسلسل. أبقى وقتًا طويلاً ساهمًا أبحلق في شاشة التلفزة.

ثم أقوم، وأتسلّل خارجًا على أطراف قدميّ، لكي لا أحدث أيّ ضجيج. وبدلاً من أن أتوجّه إلى غرفتي أدخل المطبخ.

الأواني الوسخة مكدّسة في الحوض. لم تجد يسرى ما يكفي من الوقت لغسلها فقد بدأ المسلسل بعد الانتهاء من العشاء بدقائق قليلة. منذ أن وصلت إلى تونس لم أقم بأيّ شيء فيما يخصّ تدبير شؤون البيت. يسرى هي التي تفعل كلّ شيء. ولا أحد يساعدها. اقترحت عليها عدّة مرّات أن أساعدها في أمور بسيطة كغسل الصحون أو تقشير الخضر أو تنظيف غرفتي. لكنّها رفضت. أمّا إبراهيم فقد استغرب اقتراحي واعتبره محاولة لحثّ النساء على الكسل والتراخي في تدبير شؤون بيوتهنّ وتشجيعهنّ على أمور ليست من عاداتنا وتقاليدنا.

أنتهز تلك الفرصة وأبدأ في غسل كلّ ما تراكم في الحوض. ولم أقم بذلك لمساعدة يسرى فحسب، وإنّما أيضًا لأنّي أحبّ غسل الأواني. أحبّ أن أغمس يديّ في رغوة الصابون وأن ألمس الماء وهو ينسكب من الصنبور وأن أتركه يسيل بين أصابعي فهذا يريحني تمامًا مثلما يريحني المشي تحت رذاذ المطر.

حين أكمل الغسيل لا أعود إلى الصالون لأنّ المسلسل لم ينته. أتذكّر أنّ وائل يراجع دروسه في غرفة والديه فأذهب إليه. يطلب منّي أن أساعده في القراءة. في الواقع لم يكن في حاجة إلى أيّ مساعدة. استغلّ فرصة وجودي في الغرفة وانهماك والديه في مشاهدة المسلسل لكي يقضي معي بعض الوقت. فجأة يتوقّف عن القراءة ويقول بصوت واطئ:

ـ ماما فتحت حقيبتك..

أحرّك رأسي بلا اكتراث، فأنا أعرف أنّ يسرى الشديدة الحرص على نظافة البيت تدخل إلى غرفتي كلّ يوم لتنظيفها وأنّها تبحث في الخزانة والحقيبة وتحت الفراش، وفي كلّ ما تعثر عليه من أكياس عن ملابسي الوسخة لغسلها؛ إذ تعتقد أنّي أتحرّج من أن أقدّم لها كلّ الثياب القذرة لكي لا أتعبها وهذا صحيح إلى حدّ ما، لأنّ غسّالتها القديمة بطيئة ممّا يجعلها تغسل بيديها كلّ الملابس الخفيفة بما فيها السليبات.

ـ وقرأت أوراقك..

ـ أوراقي؟

ـ آ.. قرأت بسبورك..

في كلّ زيارة إلى تونس أحمل معي دائمًا بطاقة التعريف حين أخرج. أمّا جواز سفري فأخفيه في الحقيبة حالما أصل خوفًا من أن أضيّعه، ولا أخرجه إلاّ عندما أريد تبديل النقود الأجنبيّة. ويسرى وإبراهيم على علم بذلك فأنا أوصيهما في كلّ مرّة بألاّ يسمحا لأحد من زوّارهما حتى ولو كان من الأقرباء بأن يدخل غرفتي.

لا أنزعج طبعًا من أن تفتح يسرى جواز سفري أو حقيبتي أو أيّ شيء آخر من أمتعتي، فأنا أعرف أنّها فضوليّة مثل زوجها وهي لا تتردّد

في القيام بذلك. وعلى أيّ حال كنت على يقين من أنّها فعلت ذلك منذ الأيّام الأولى، وربّما عدّة مرّات، كما أنّي واثق من أنّ أخي يستعمل معجون أسناني ويتعطّر بعطري ويمشّط شعره بمشطي ويطلي إبطيه بمزيل روائحي، ويقلّم أظافره بمقلّمة أظافري، ويقصّ الشعر النابت في منخريه بمقصّي بين وقت وآخر. وهو لا يفعل هذا لكي يستغلّني وإنما إعجابًا بكلّ ما يأتي من الخارج وتحديدًا من فرنسا أو ألمانيا. ولعلّ ما يشجّعه على ذلك هو أنّه يعرف أنّي لا أنزعج ممّا يفعله وإلاّ لكنت أخفيت أشيائي في كيس أو محفظة ولما تركتها معروضة عليه في غرفة الاستحمام.

ـ قالت الحمد للّه.. بسبورك تونسي..

ـ ماذا؟

ـ قالت ما عندك بسبور فرنساوي..

أدرك عندئذ أنّ يسرى فتّشت أوراقي لتعرف إن كنت قد تجنّست بالجنسيّة الفرنسيّة. أستغرب أن تضطرّ إلى القيام بذلك في غيابي، فقد سبق أن طرحت عليّ السؤال ذات صباح في المطبخ بشكل غير مباشر وأجبتها بأنّي غير «مطورن» كما يقولون عن العربي الذي يصبح فرنسيًّا. لا بدّ أنّه خامرها في لحظة ما قليل من الشكّ في ما قلته فأرادت أن تتأكّد من ذلك.

يسكت وائل ويثبّت عليّ بصره. عيناه البرّاقتان الجامدتان تعكسان إحساسًا بالخوف. بدا كما لو أنّه ندم فجأة على ما قال، وأنّه ينتظر أن أنفعل أو أن أعبّر عن استيائي ممّا فعلته أمّه. وعندما أبتسم يتلاشى خوفه ويسألني:

ـ عندك أولاد في فرانسا؟

ـ لا.

ـ لماذا؟

ووجدتني أقول:

ـ كاترين لا تريد أولاداً..

لا أدري كيف خرجت الكلمات من فمي.. إنّها المرّة الأولى التي لا أكذب فيها. سألني الكثيرون، وخصوصاً يسرى، عدّة مرّات لماذا لم أنجب وقد كنت أجيبهم دائماً بأنّي لا أرغب في ذلك. وبالطبع كانوا يتطلّعون إليّ بشكل يدلّ على أنّهم لا يصدّقونني. ومن المرجّح أنّهم يعتبرونني رجلاً عقيماً أو يعتقدون أنّ كاترين امرأة عاقر.

والحقيقة الكاملة التي لم أقلها أبداً لأحد أنّ كاترين هي التي لا تريد أولاداً، إذ سبق أن أنجبت ولداً وبنتاً من زواج أوّل انتهى بطلاق. الولد مات بعد أشهر قليلة من ولادته وقد أثّر فيها ذلك تأثيراً عميقاً والبنت احتفظ بها الأب بعد الطلاق، لأنّ المحكمة رأت أنّ من مصلحتها أن تبقى معه فقد كانت كاترين آنذاك في حالة نفسيّة لا تسمح لها بأن تربّيها تربية سليمة.

ولـمّا تحسّنت حالتها فيما بعد حاولت أن تستعيدها. لكنّ البنت فضّلت أن تظلّ مع أبيها. تألّمت كاترين لذلك كثيراً وتفاقم إحساسها بالذنب. وقبل أن نتزوّج اشترطت عليّ ألاّ ننجب أطفالاً إلاّ عندما تشعر هي برغبة في ذلك. قبلت شرطها مراهناً على أن تتغيّر.

لكنّ الاعوام تمضي وكاترين لا تزال على رأيها. شيئاً فشيئاً تناقص حماسي للإنجاب، وتعوّدت على العيش معها بدون أطفال. ازددت تعلّقاً بها ولم يعد باستطاعتي أن أهجرها فانا، خلافاً لـما يعتقده البعض، لم أتزوّج كاترين للحصول على أوراق الإقامة وإنّما لأنّي أحببتها. أعجبت كثيراً بحسّها الإنساني العميق ونبلها وصراحتها وحرصها على أن تعيش حياتها كما تودّ أن تعيشها. وهي امرأة بسيطة ومتواضعة. لهذا أحبّها أغلب أفراد عائلتي. حتى أمّ يسرى التي تحتّني في كلّ زيارة على أن أطلّق «الروميّة» كما تسمّيها لاكتشف متعة ذلك الشيء عند المسلمة بنت الحلال، فقد اعترفت لي أخيراً بانّ كاترين امرأة طيّبة ولطيفة دون أن تكفّ عن حثّي على تطليقها.

ـ كاترين ما تحبّ الأطفال؟..

ـ تحبّ الاطفال.. لكن ما تريد الآن أن يكون لها أولاد..

ـ لماذا؟..

وبينما كنت أبحث عن إجابة مقنعة يسألني:

ـ كاترين مريضة؟

تعجبني الفكرة فأحرّك رأسي بالإيجاب. يسكت. وبعد برهة يحدّق فيّ بعينين ملتمعتين، كأنّه تذكّر فجاة شيئاً مهمّاً كان قد نسيه.

ـ شوف كيف أصلّي في الجامع..

يتناول سجّادة أبيه المعلّقة على الجدار. يفرشها بعناية وسط الغرفة. ثم ينتصب عليها في اتّجاه القبلة مستقيماً ضامّاً قدميه.

www.mlazna.com-RAYAHEEN

ويشرع في السجود والركوع مكبّراً من حين إلى آخر. وعندما يفرغ من ذلك يلتفت إليّ منتظراً أن أمتدحه وهذا ما فعلت.

يشعّ وجهه سروراً ويسألني:

ـ تعرف من علّمني الصلاة؟

ـ إبراهيم..

ـ لا.. ماما..

يطوي السجّادة بعد أن ينفضها عدّة مرّات. ثم يعيدها إلى مكانها.

ـ ماما بدأت تصلّي قبل بابا.. وماما هي التي نصحته بالصلاة.. قالت له إذا ما صلّيت تدخل جهنّم.. وتحرقك النار..

أترك وائل وأتوجّه إلى غرفتي. أتمدّد على السرير. أفتح كتاباً وأحاول أن أقرأ قليلاً. غير أنّي لا أستطيع. كنت عاجزاً عن التركيز. أغلق الكتاب وأفتح النافذة. ولمّا أنحني أشاهدها. كانت نعيمة ترتدي فستاناً بلا أكمام يكشف عن زنديها. وكان شعرها مجدولاً في ضفيرة طويلة. ترفع رأسها كما لو أنّها كانت تنتظرني. وحين تلتقي نظراتنا تبتسم.

لمّا رأيتها في المجمّع التجاري منذ أيّام لم أكن متأكّداً من شبه الابتسامة التي ارتسمت على شفتيها حين اقتربت منها. وفيما بعد اقنعت نفسي بأنّني تخيّلت ذلك، وأنّ ما بدا لي ابتسامة أو ما يشبهها لم يكن في الحقيقة سوى تحريك لشفتيها. أمّا الآن فأنا واثق من أنّها ابتسمت لي، وأنّها فعلت ذلك وهي واعية تماماً بما تفعل. كانت ابتسامتها مثل شعاع دافئ تسلّل إلى نفسي الباردة المعتمة.

أترك النافذة وأتوقّف في المدخل ثم أنصت. إبراهيم ويسرى لا يزالان منهمكين في مشاهدة المسلسل. ولا صوت ولا حركة في الغرفة

الأخرى حيث وائل. أتمنّى أن يتواصل المسلسل أطول ما يمكن من الوقت. أعود إلى النافذة وقد عقدت العزم على أن أكلّمها أو على الأقلّ أردّ على ابتسامتها بابتسامة مماثلة.

من الحمق حقًّا أن أترك هذه الفرصة النادرة تفلت منّي. ليس هناك ما هو أكثر وضوحاً من الابتسامة للتعبير عن إحساسها بالارتياح لرؤيتي. لا بدّ أنّها هي أيضاً ترغب في لقائي. لا شكّ أنّ مطاردتي السرّيّة لها أثمرت أخيراً. عليّ أن أنتقل إلى الفعل وبسرعة قبل أن يحدث ما قد يدفعها إلى تغيير موقفها منّي.

أستجمع كلّ قواي وأنحني. لم تكن هناك. لكنّ النافذة لا تزال مضاءة. كنت مزهوًّا بنفسي. وكنت على يقين تامّ من أنّها ستعود بين لحظة وأخرى. أزداد انحناء كي تراني جيّداً حين تظهر من جديد. وأشرع في التفكير في ما ينبغي أن أقول لها إذا رأيت أنّ لديّ ما يكفي من الجراة لذلك. هل أحدّد لها موعداً للقاء من الآن، أم أؤجّل ذلك إلى مناسبة أخرى وأكتفي بالسؤال عن أحوالها كما يفعل أيّ جار مع جارة يحترمها؟

أنظر إلى السماء. وفي اللحظة التي أتطلّع فيها إلى الأسفل أتفاجأ برجل في النافذة التي كانت فيها نعيمة. يمدّ جذعه ثم يستدير رافعاً رأسه. ويصوّب إليّ نظرة حادّة وهو يتمتم بكلام لم أتمكّن من سماعه. يصدمني المشهد فأتراجع وأغلق النافذة على الفور. ثم أطفئ الضوء كما لو أنّي أختفي لأحمي نفسي من الرجل. وأستلقي على الفراش.

القحبة!.. أيّ فخّ نصبته لي بإحكام!.. الآن أفهم مغزى ابتسامتها الغريبة. من المؤكّد أنّها قالت عنّي شيئاً ما للرجل. وإلاّ فلماذا هذه النظرة العدوانيّة؟ ولماذا هذا الكلام الذي لا شكّ أنّه شتائم؟..

ولكن من هو هذا الرجل؟ هل هو أحد أقاربها أم قوّادها؟

لا أدري كيف وقعت بمثل هذه السهولة في الفخّ. أحسّ أنّي ساذج وينتابني الغضب. وما يزيد في غضبي هو الخوف من أن يقول الرجل لأخي أو لأحد معارفه أنّه ضبطني وأنا أتلصّص على نعيمة وأعاكسها. الخوف من أن ينتشر الخبر وينفضح أمري في الحيّ.

كنت غارقًا في هواجسي حين فُتح باب الغرفة فجأة. يلوح لي إبراهيم على ضوء الممرّ. يتقدّم من السرير ببطء فأغمض عينيّ متظاهرًا بأنّي نائم. لكنّ الحيلة لا تنطلي عليه. يسألني باستغراب:

ـ ماذا تفعل هكذا.. في الظلام؟

يشعل الضوء ويثبّت عليّ بصره.

ـ العرق يسيل على وجهك.. كيف تتحمّل هذا الحرّ؟.. لماذا لا تفتح الشبّاك؟

وحين يتقدّم من النافذة ليفتحها أسأله عن رأيه في حلقة المسلسل، في محاولة يائسة لمنعه من التطلّع إلى الخارج، فيجيبني قبل أن يتّكئ على الإفريز وينحني مادًّا رأسه:

ـ رائعة.. أحسن من الحلقة السابقة..

يظلّ منحنيًا للحظة طويلة. وحين يستدير يقول:

ـ تعرف من رأيت في شبّاك الدار التي تحتنا؟

أتطلّع إليه متظاهرًا بالاهتمام. يضيف وهو يبتسم:

ـ نعيمة..

أحرّك رأسي دون أن أقول شيئًا.

- ١١ -

أوّل شخص تقع عليه عيناي حين أصل إلى مقهى سوق الشواشين هو نجيب، فقد كان جالسًا في طرف أوّل مصطبة ينتظرني.

ـ كنت متأكّدًا من أنّك ستعود إلى المقهى..

يقول لي وهو يقف لاستقبالي. وحالما اتّخذ مكاني إلى جواره على المصطبة يخبرني بأنّه قرّر أن يقضي برفقتي وقتًا أطول بكثير ممّا فعل في المرّة الماضية. نبقى في المقهى حتى ما بعد الظهر. وعندما نغادر سوق الشواشين نسير على غير هدى. كان مزاجي رائقًا، فقد نمت جيّدًا البارحة. أفقت متأخّرًا. تناولت الفطور على مهل. ثم استحممت طويلاً متجاهلاً ملاحظات يسرى التي كانت تذكّرني بصوت عال من المطبخ، بين الفينة والأخرى، بأن أغلق صنبور الماء الساخن حين لا أستعمله، لكي لا نستهلك كثيرًا من الغاز فلا تكون الفاتورة المقبلة مرتفعة.

الهواء قليل. لكنّ الظلال منداحة في أغلب الأمكنة، فالمباني القديمة المتلاصقة مكوّمة على بعضها البعض كما لو أنّها تتساند خوفًا من الانهيار. والأزقّة المتعرّجة ضيّقة والعديد من الشوارع التي تشقّ الأسواق مسقوفة. وبالرغم من أنّ الحرّ شديد في الخارج فقد كنّا نشعر بشيء من البرودة المنعشة.

يغمرني ارتياح عميق وأنا أسير إلى جانب نجيب. لأوّل مرّة منذ أن التقيته أشعر بشيء من ذلك الدفء الذي كان يميّز علاقتنا القديمة. بدا لي في المرّة الماضية متوتّرًا وعصبيًّا. لكن ها هو يستعيد تلقائيّته وبساطته وطيبته التي جعلتني أحبّه وأفضّله على الكثيرين ممّن كنت أخالط.

لا أسأله إلى أين نذهب. أسلّم له أمري وأتركه يقودني إلى حيث يشاء. كنت واثقًا من أنّ التجوُّل برفقته سيكون ممتعًا ومفيداً، فهو يحبّ المدينة القديمة ويعرف بحكم إقامته فيها منذ أعوام طويلة أزقّتها وساحاتها وأسواقها ومساجدها وحمّاماتها وأضرحة أوليائها مثلما يعرف كفّ يده.

نعبر أسواقًا تفضي إلى بعضها البعض.. سوق الباي. سوق البركة. سوق الكبابجيّة. سوق اللّفّة. سوق النساء. سوق العطّارين. سوق البلاغجيّة. سوق الوزر. كانت شبه خالية وغارقة في صمت القيلولة. يتوقّف نجيب من حين إلى آخر ليسلّم على من يعرف من أصحاب الدكاكين الذين كان بعضهم مستغرقًا في النوم. في سوق العطّارين يصرّ أحدهم على أن نجلس قليلاً في دكّانه عندما يخبره نجيب بأنّي أعيش في الخارج. يأتينا بمشروبات باردة من مقهى مجاور

ويحدّثنا عن السيّاح الذين يغزون السوق كلّ عام بأعداد تتزايد باستمرار، لكنّهم يتردّدون كثيرًا ويدقّقون ويطرحون أسئلة كثيرة قبل أن يشتروا أيّ شيء، طالبًا منّي أن أفسّر له هذه الظاهرة العجيبة التي لم تكن موجودة من قبل.

نعود إلى السير ونسلك نهج القصبة. وحين نقترب من ساحة «باب بحر» ننعطف إلى اليسار وننطلق في منطقة لا يرتادها السيّاح. الأزقّة مزدحمة والسلع مكدّسة أمام الدكاكين. يتزايد الضجيج وأصوات الباعة الجوّالين. الهواء مشبع برائحة الشواء المنبعثة من المطاعم الشعبيّة. ومن كلّ مكان تتعالى أغان قديمة وحديثة، مشكّلة مع أصوات الباعة والمارّة وضجيج العربات والدرّاجات الناريّة خليطًا متنافرًا يوحي باستمرار الحياة النابضة في هذه الأزقّة في عزّ الظهيرة.

أحسّ بالجوع وأنا أستنشق رائحة الشواء. أحدّق في شرائح اللحم المعروضة في واجهات صغيرة. وتملّكتني فجأة رغبة قويّة في أن نتناول الغداء في واحد من هذه المطاعم التي بدت لي نظيفة. وفيما كنت أفكّر في أن أقترح ذلك على نجيب يقول وهو ينطلق في زقاق ضيّق:

ـ تعال.. تعال..

نعبر كلّ الزقاق وننتقل إلى زقاق آخر أكثر اتّساعًا وهدوءًا. وبعد مسافة قصيرة يتوقّف ويسألني:

ـ تحبّ أن..

يسكت ويتطلّع إليّ. كان واضحًا أنّه لا يجرؤ على إتمام جملته.

ـ أحبّ ماذا؟

www.mlazna.com-RAYAHEEN

ـ ما فهمت؟.. شوف..

ألتفت إلى حيث أشار بيده، فإذا بي أرى امرأة منتصبة أمام أحد الأبواب وهي تدخّن. أسأله مندهشًا:

ـ ماخور!..

كنت قد نسيت تمامًا أنّ هناك ماخوراً في ذلك الجزء من المدينة القديمة. ولم أنتبه إطلاقًا إلى أنّ نجيب كان يقودني إليه منذ أن غادرنا نهج القصبة وانعطفنا إلى اليسار؛ فقد كنت مستغرقًا في النظر إلى الدكاكين ووجوه الباعة والمارّة وقراءة أسماء الشوارع على اليافطات القديمة المثبّتة على الجدران.

ـ ولكن ماذا سنفعل في ماخور الآن؟

ـ سنتفرّج على القحاب..

لا يزال الماخور كما كان حين كنّا نتردّد عليه ونحن في السنوات الأولى من الدراسة في الجامعة. لا شيء تغيّر فيه سوى القحاب والقوّادات العجائز اللاتي كنّ يشرفن عليهنّ. أتذكّر، ونحن نتجوّل فيه، أنّ نجيب كان من أكثر المتردّدين عليه، كما يلفت انتباهي العدد الهائل من الرجال الذين كانوا هناك. لم أكن أتصوّر أنّ الماخور لا يزال يجتذب الناس إلى هذا الحدّ.

أغلب البيوت مفتوحة. والكثير من القحاب صغيرات السنّ وعلى قدر من الجمال. كنّ يرتدين ملابس خفيفة وقصيرة تكشف عن صدورهنّ وأفخاذهنّ. أغلبهنّ يدخّنّ أو يلكن العلكة. كنّ يتطلّعن بدلال وغنج حولهنّ، ويغمزن الرجال أو يطلقن نكات جنسيّة سمجة وهنّ يتضاحكن للفت الانتباه.

تقول إحداهنّ وهي تشير إلى نجيب:

ـ تعال.. يا سي النيّاك..

تتطلّع إليه باستغراب وتواصل بلهجة توحي بأنّها تعرفه:

ـ أين كنت؟.. من مدّة ما رأيتك..

يقترب منها نجيب فتمسك بيده وتضعها على صدرها العاري. وبعد لحظة تلتفت إليّ. تتفحّصني طويلاً كما لو أنّي كائن قادم من المرّيخ. ثم تسأله بتعجّب:

ـ ومن هو هذا النيّاك الذي معك؟..

تفلت منّي ضحكة فتضيف:

ـ ابن القحبة.. أبيض ونظيف.. ومعتن بنفسه.. كأنّه بنت..

يقول لها نجيب بافتخار:

ـ أبيض ونظيف لأنّه لا يعيش في تونس مثلي ومثلك.. وإنّما في فرانسا وما أدراك..

تطلّ قوّادتها العجوز برأسها وتقول:

ـ خمسة وخميس على تونس.... تونس أحسن من فرانسا.. تونس أحسن بلاد في كلّ برّ ربّي...

كانت في الستّين وبدينة مثل أغلب القوّادات. تحدّق فينا من خلال زجاج نظّارتها السميك. ثم تصيح:

ـ تحيا تونس.. يحيا بورقيبة..

يقهقه بعض الرجال. ويقول أحدهم:

ـ العجوز خرفت.. ما زالت تظنّ أنّنا في عهد بورقيبة..

تتفحّصني المومس ثانية وتقول:

ـ إذن عندك الفلوس.. عندك الأورو..

تستدير إليّ وتضع يدها على عضوي. أتراجع مبتعدًا عنها، فتقول وهي تمرّر لسانها على شفتيها الغليظتين المطليّتين بأحمر قان في محاولة لإثارتي:

ـ ما تحبّ تذوق العربي الساخن؟..

تقول القوّادة وهي تحثّني على دخول البيت:

ـ ما ثمّة شيء أحسن من متاع بنت بلادك.. يا وليدي..

عندما أرفض الاستجابة لها ونستأنف السير، يتناهى إلينا صوت القوّادة وهي تقول للمومس:

ـ الأحسن أنّه ما دخل.. ابن الكلب.. لا بدّ أنّه مخنّث.. أو عنده السيدا.. كلّ الذين يعيشون في الخارج عندهم السيدا.. لأنّ الناس في الخارج لا يخافون لا ربّي ولا رسوله.. ويتنايكون كلّ الوقت كالكلاب..

الزقاق يفضي إلى ساحة صغيرة تقوم في وسطها مبولة عامّة يتجمّع حولها شبّان يدخّنون وهم يلتفتون في كلّ الاتّجاهات. أفطن إلى أنّ هناك قحابًا في أحد الزقاقين اللذين يتفرّعان عن الساحة، ممّا يعني أنّنا ما زلنا داخل الماخور خلافًا لما كنت أظنّ. أتمنّى عندئذ أن

نغادر المكان، فما شاهدناه من القحاب يبدو لي كافيًا، خصوصًا أنّهنّ متشابهات. غير أنّ نجيب الذي لاحظ بالتأكيد عدم تحمّسي لمواصلة التجوّل في المكان يقول وهو يدخل الزقاق:

ـ القحبة التي أريدك أن تراها ستعجبك.. أنا متأكّد.. تعال..

أتبعه صامتًا. الزقاق طويل وضيّق جدًّا في بعض المواضع إلى درجة أنّنا نتوقّف عن السير، ونلتصق بالجدران قدر الإمكان لكي نفسح الطريق للمارّة البدينين وعراض الأكتاف. بيت القحبة هو آخر بيت في الزقاق. الباب موارب. وأمامه يقف رجلان ينتظران دورهما. يقترب نجيب من الباب. وفي اللحظة التي يمدّ فيها رأسه للتطلّع إلى داخل البيت يخرج منه رجل. وبعد لحظة تطلّ القحبة.

كانت فعلاً جميلة. إلاّ أنّ ما يلفت نظري هو أنّها لم تكن عارية مثل بقيّة القحاب، كما أنّ ثيابها تكشف عن ذوق. تنظر إلينا وهي تسوّي شعرها بطريقة مثيرة، ثم تأمر أحد الرجلين بأن يدخل وتختفي من جديد.

ـ ما رأيك؟.. جميلة؟..

أهزّ رأسي بالإيجاب. تلتمع عيناه فرحًا. ويتحسّس وجهه بشكل يكشف عن مدى شهوته لها.

ـ تريدها؟

ـ آ.. لكنّها غالية.. بنت الكلب..

ـ لا تهتمّ.. عندي فلوس كثيرة..

أحسّ أنّه في حرج وأنّه لا يريد أن يسبّب لي أيّ إزعاج، فأقول لكي أطمئنه:

ـ لا تشغل بالك بي.. سأنتظرك..

ـ أين؟

ـ هنا.. أو في مقهى..

يظلّ صامتًا للحظة طويلة. ثم يقول بلهجة من اتّخذ قرارًا:

ـ لا.. ليس اليوم.. سأعود إليها قريبًا..

نغادر الماخور ونعود إلى الأسواق. نمكث هناك حتى العصر. وبعد أن أودّع نجيب أتوجّه إلى شارع بورقيبة. عندما أمرّ أمام مقهى الأنترناسيونال يخرج النادل الذي يحلم بالهجرة. يصافحني ويسألني عن أحوالي. ثم يدعوني إلى الجلوس، وهو يؤكّد لي أنّ هناك طاولات شاغرة وأنّ المقهى هادئ. لا ألبّي دعوته، إذ لم تكن لديّ آنذاك أيّ رغبة في الجلوس في المقاهي. يلحّ عليّ فأعده بأن أعود في أقرب وقت للتخلّص منه.

أواصل السير في الشارع تحت الأشجار حتى أبلغ أكشاك بيع الزهور. الكثير منها مغلق. أمّا الأكشاك المفتوحة فهي خالية من الزبائن. يخطر ببالي وأنا أتجوّل في المكان أن أشتري باقة ورود ليسرى لتحلّ محلّ الزهور الاصطناعيّة التي تضعها في الصالون. إلاّ أنّي أعدل عن الفكرة لأنّي لم أكن متأكّدًا من أنّ يسرى وإبراهيم يفضّلان الزهور الحقيقيّة.

وعندما أتابع السير أحسّ بوجع في قدميّ فأقرّر العودة إلى حيّ البساتين.

في طريقي إلى محطّة الحافلات ألتقي ليلى أخت يسرى. كنت قد بلغت منتصف شارع ابن خلدون لـمّا رأيتها. والحقيقة أنّي ما كنت لأراها لو لم تنتصب أمامي فجأة. كانت تضع على عينيها نظّارة سوداء وتمسك بسيجارة مشتعلة. تزيل النظّارة وتقبّلني بحرارة وتلقائيّة كما فعلت في المرّة الماضية.

ـ ماذا تفعل هنا.. أمام الإدارة التي أعمل فيها؟..

ـ عائد إلى البيت..

ـ ستركب الحافلة؟

أومئ برأسي وأنا أنظر إلى زنديها العاريين.

ـ لو انتظرت ساعتين لعدت معنا.. في سيّارتنا..

تلقي بالسيجارة على الأرض وتسألني:

ـ تنزل إلى مركز المدينة كلّ يوم؟

ـ كثيرًا.. لكن ليس كلّ يوم..

ـ على كلّ حال إذا نزلت مرّ عليّ.. الآن تعرف أين تجدني..

تلتفت حولها قبل أن تضيف بصوت منخفض:

ـ إذا كنت تشعر بحرج مع زوجي فمن الغد سأكون وحدي في السيّارة.. زوجي سيسافر إلى مدنين.. وسيبقى هناك أربعة أيام..

www.mlazna.com-RAYAHEEN

لا أدري لماذا خطر ببالها أنّ من الممكن أن أشعر بالحرج مع زوجها، فأنا أستلطفه كثيراً وأرتاح له وهي تعرف ذلك. أردت أن أنتهز تلك الفرصة فأسألها عن أحواله. لكنّي نسيت اسمه. أحاول أن أتذكّره فلا أفلح. الشيء الوحيد الذي كنت واثقاً منه هو أنّه اسم بربري لا يوجد إلاّ في بعض المناطق في الجنوب.

ـ سأكون وحدي..

تضيف قبل أن تعود إلى مبنى إدارتها:

ـ ويمكنك أن تؤنسني في الطريق..

- ١٢ -

ـ فطور اليوم كسكسي بالحوت.. ولازم تتغدّى معنا..

تقول يسرى حالما أدخل المطبخ. أوافق لأنّي أحبّ كثيراً هذا الطبق. وقد وجدت في ذلك فرصة للتجوّل قليلاً في حيّ البساتين، والذهاب فيما بعد إلى المدرسة للقاء وائل والعودة برفقته إلى البيت، فهو لا يكفّ منذ قدومي عن حثّي على القيام بذلك. يريدني أن أنتظره أمام المدخل عند الخروج لكي أرى مدرسته، وخصوصاً لكي يراني معلّمه وأصدقاؤه الذين حدّثهم عنّي عدّة مرّات.

أترك يسرى منهمكة في الطبخ وأغادر الشقّة. عند مدخل الحديقة أشاهد الشبّان الثلاثة. كانوا يستندون بظهورهم إلى سياج الحديقة. وكانوا يتحدّثون بحماس وبأصوات مرتفعة عن كرة القدم. حين أمرّ بهم يتوقّفون عن الكلام ويرفعون رؤوسهم معاً. يحدّقون فيّ قليلاً ثم يعودون إلى الحديث.

أسير في اتّجاه الجامع. ألاحظ وأنا أدنو منه أنّ هناك عدداً من الرجال داخله رغم أنّ الوقت ليس وقت صلاة. أتوقّف قليلاً أمام المدخل. وبعد تردُّد أزداد اقتراباً من الباب وأبدأ في التطلُّع إلى الداخل. أغلب الرجال كانوا في بيت الصلاة.

بعضهم يقرأ القرآن، والبعض الآخر مستغرق في العبادة. يبدو الصحن الخالي وسط ضوء الشمس الباهر أكثر اتّساعاً.

أشعر برغبة في التجوُّل في أرجائه والاقتراب قدر الإمكان من المئذنة. إلاّ أنّي لا أبرح مكاني. خشيت أن أزعج الذين كانوا في بيت الصلاة وأفسد خلوتهم.

ـ ماذا تفعل؟

أستدير فإذا بي أرى شابًا في العشرين. أدرك فوراً من نظرته الباردة أنّه من «الخوانجيّة» هؤلاء المتديّنين المتشدّدين.

يعيد السؤال بلهجة واثقة. أجيبه وأنا أحدّق في شاربه الأسود الذي بدا لي غير مناسب لوجهه الطويل ذي البشرة الشديدة الشحوب:

ـ أتفرّج..

ـ تتفرّج؟

ـ آ.. أتفرّج..

ـ على ماذا تتفرّج؟

ـ على الرجال الذين يصلّون..

يقول باستهزاء:

ـ إنّهم لا يصلّون.. الوقت ليس وقت صلاة..

ـ يصلّون.. أو يتعبّدون.. أو يقرأون القرآن.. لا فرق..

يتفرّس في وجهي وهو يهزّ رأسه هزّات خفيفة.

ـ ولماذا تتفرّج عليهم؟..

لا أردّ على سؤاله. أدير له ظهري وأنظر إلى الصحن. كنت أتصوّر أنّه سينصرف. لكنّي أفاجأ به ينتصب أمامي ليحجب عنّي المشهد.

ـ تظنّ أنّ الجامع سيرك؟..

ـ وما دخلك أنت في..

يقاطعني وهو يصرخ:

ـ الجامع ليس سيركًا.. أو حديقة حيوانات.. حتى تتفرّج عليه..

أقول وقد تفاقم انفعالي:

ـ اسمع.. أنا مسلم مثلك.. ومن حقّي أن أتفرّج على الجامع.. ويمكن أن أدخله إذا أردت.. الجامع بيت ربّي.. وهو مفتوح لكلّ عباد الله..

ـ لو كنت مسلمًا كما تقول لكنت تصلّي..

لا أصدّق أذني. أسأله غاضبًا:

ـ ومن قال لك إنّي لا أصلّي..

ـ أعرف..

هل رآني عند مدخل الجامع قبل أيّام حين كنت أنتظر إبراهيم ووائل؟.. هل كان من أولئك الذين حدجوني بنظرات حادّة لـمّا خرجوا من الجامع وشاهدوني واقفًا أمام الباب؟ من المؤكّد أنّه يصلّي صلاة الجمعة في الجامع، وأنّه كان في ذلك اليوم من بين المصلّين.

أتذكّر أنّ شيئًا مماثلاً حدث لي في القيروان قبل أعوام قليلة. لم أكن وحيدًا آنذاك. كنت برفقة كاترين. وبينما كنّا نتجوّل في المدينة ألحّت عليّ لنزور جامع عقبة بن نافع. لـمّا وصلنا كان الوقت وقت صلاة وكان الجامع غاصًّا بالبشر. لم نحاول أن ندخل طبعًا لكي لا نزعج المصلّين. أخذنا ننظر إلى الداخل من خلال الباب الذي لم يكن مغلقًا تمامًا. فجأة تقدّم منّا شابّ ملتح، وأمرنا بأن نغادر المكان على الفور بعد أن لامني بشدّة على أنّي أشجّع الكفّار على تدنيس حرمة الجامع في وقت مقدّس مثل وقت الصلاة والتطاول على الدين الحنيف.

ـ وكيف تعرف أنّي لا أصلّي؟

يجيبني على الفور كأنّه كان ينتظر سؤالي:

ـ هذا لا يعنيك..

يتابع بعد برهة بحماس:

ـ ولكنّ الأمور سوف لا تبقى على هذه الحال.. سيأتي يوم نجبر فيه المتقاعسين على الصلاة.. سنحكم البلاد قريبًا بحول الله سبحانه وتعالى.. وسنقضي على جميع الكفّار والملحدين والمنافقين من أمثالك.. سنطهّر الأرض من المفسدين..

ينتابني الحزن، ليس بسبب هذا الكلام العجيب الذي لم أعره أيّ اهتمام، وإنّما لأنّي وجدت نفسي مرغمًا على التوقّف عمّا كنت أفعل، والأدهى من ذلك على مغادرة الجامع. هذا الشابّ الذي لا أدري من أين طلع عليّ ينجح في تعكير مزاجي وطردي من الجامع في نهاية الأمر. باستطاعتي بالطبع أن أتصرّف كما لو أنّ شيئًا لم يحدث وأن أبقى في مكاني. لكنّي خشيت أن تتعقّد الأمور إن فعلت ذلك فيحدث صدام بيني وبين الشابّ، ممّا قد يخلق بعض المشاكل لي وخصوصًا لأخي في الحيّ.

أسير في اتّجاه المجمّع التجاري. حين أمرّ أمام مبنى البريد أتذكّر كاترين. تتملّكني فجأة رغبة قويّة في سماع صوتها. فأقرّر أن أخابرها. أدخل المبنى فأكتشف أنّ كلّ المقصورات محجوزة، وأنّ الذين ينتظرون دورهم كثيرون. أغادر المكان وأقصد المجمّع التجاري وأبقى هناك إلى أن يحين وقت خروج وائل.

أتذكّر مدرستي الأولى وأنا أعبر البوّابة. وحالما أخطو الخطوة الأولى باتّجاه شجرة أوكالبتوس ضخمة تقوم وسط الساحة للاحتماء بظلّها من الحرارة، يظهر رجل في طرف الساحة ويسير في اتّجاهي. ظننت أنّه مدير المدرسة أو مساعده أو شيء من هذا القبيل. وعندما يقترب أستنتج من هيئته أنّه الحارس. يسلم عليّ بحرارة. ثم يقف بجانبي.

يتطلّع إليّ كما لو أنّه ينتظر أن أقول له شيئًا ما. سلوكه يبدو لي غريبًا، فهو لا يسألني عمّا أفعل ولا يطلب منّي أن أخرج من الساحة مثلما كنت أتوقّع. وفضلاً عن ذلك يعاملني باحترام وبقليل من الحذر.

من الطبيعي أن يكون حذرًا، فهو يراني للمرّة الأولى ولكن لماذا يتصرّف معي على هذا النحو؟ لعله ظنّ أنّي مسؤول كبير في الحيّ وأنّي أقوم بزيارة تفتيش مفاجئة للمدرسة. يبقى واقفًا إلى جواري صامتًا. ولا يتركني إلاّ عندما أقول له إنّ ابن أخي يدرس هنا وإنّي أنتظر خروجه..

كان وائل سعيداً بقدومي. ظلّ ممسكًا بيدي إلى أن خرجنا من الساحة. وعندما نقترب من العمارات ألاحظ أنّ الشبّان الثلاثة لا يزالون واقفين في المكان نفسه الذي تركتهم فيه أمام مدخل الحديقة. كانوا لا يزالون منهمكين في الحديث عن كرة القدم حتى أنّه يخيّل إليّ أنّهم لم يفطنوا إلينا ونحن نمرّ أمامهم. وحالما نجتاز البوّابة تقع عيناي على نعيمة.

لم تكن وحيدة هذه المرّة. كان برفقتها الطفل الذي شاهدته قبل أيّام في شقّتها لـمّا اقتربت من بابها الموارب للتطلّع إلى داخلها...

أستنتج من الأكياس التي يحملانها أنّهما عائدان من السوق. أتباطأ كثيرًا لكي لا نلحق بهما. إلاّ أنّ الطفل يتوقّف ويتطلّع إلى الخلف. تلتقي نظراتي بنظراته فأشيح عنه بوجهي. وعندما نقترب منهما يمدّ رأسه في اتّجاهي ويحدّق فيّ للحظة بعينين تعكسان شيئًا من الحيرة. ينتبه وائل إلى ما يحدث فيبطئ السير. فجأة يخطو الطفل خطوة إلى الأمام ويستدير إليّ ثم يثبّت عليّ بصره بطريقة توحي بأنّه عرفني. أواصل السير، وحين نتجاوزهما أسمعه يقول بصوت منخفض:

ـ هذا هو الرجل الذي شفته يتلصّص على دارنا..

أسرع الخطى. وعندما نشرع في تسلّق الدرج يسألني وائل:

ـ سمعت ماذا قال لها؟..

أتظاهر بأنّي لم أسمع شيئًا.

ـ عن أيّ شخص تتحدّث؟..

ـ عن الولد مع نعيمة..

ـ ماذا قال؟

ـ قال إنّك تلصّصت على دارهم.. كذّاب.. سأنتظره.. وسأقول له إنّ عمّي ما تلصّص على دارهم..

يتوقّف لكنّي أجذبه بقوّة وآمره بأن يواصل السير.

ـ لازم أقول له إنّه كذّاب..

ـ من قال لك إنّه يتحدّث عنّي؟

ـ شفته ينظر إليك.. ويشير إليك بإصبعه..

ـ ما يهمّ.. انس الحكاية... إنّه صغير..

بعد لحظة أضيف:

ـ لا تقل لأحد ما وقع.. لا ليسرى.. ولا لإبراهيم.. فهمت؟..

يحرّك رأسه وقد أشعّ وجهه بفرح عميق يشي باعتزازه بأنّه أصبح يقاسمني سرًّا مهمًّا. وحين نبلغ الطابق الرابع يتوقّف ويسألني:

ـ أعجبك معلّمي؟

www.mlazna.com-RAYAHEEN

ـ آ.

ـ ومدرستي؟

ـ رائعة..

ـ مثل المدارس في فرنسا؟

ـ آ..

يندفع راكضًا صوب باب الشقّة. أستغلّ فرصة ابتعاده عنّي فأنحني وأتطلّع قليلاً إلى نعيمة والطفل وهما يتسلّقان الدرج في صمت.

www.mlazna.com
^RAYAHEEN^

-١٣-

في بداية السهرة يندلع شجار مفاجئ بين إبراهيم ويسرى.

لا أذكر كيف بدأ. كلّ ما أذكره هو أنّ إبراهيم أخذ يتحدّث عن الكسكسي الذي طبخته لنا يسرى للغداء. لا أدري لماذا فعل ذلك في مثل ذلك الوقت. قال إنّه لم يكن طيّبًا كالعادة. ردّت عليه يسرى فورًا بأنّ السبب هو السمك الذي اشتراه لها، فهو لم يكن طازجًا بما فيه الكفاية. انفعل أخي فانفعلت يسرى بدورها. ارتفع صوتاهما وراحا يصرخان ويتبادلان التهم والانتقادات.

ولحسن الحظّ فإنّ الشجار لايدوم هذه المرّة أكثر من بضع دقائق. ينهض إبراهيم فجأة ويخبرني أنّه يعتزم الخروج للقيام بجولة في الحيّ لتهدئة أعصابه. يقترح عليّ أن أرافقه فأوافق. نتمشّى لوقت قصير في شارع أبي القاسم الشابي. ثم ندخل مقهى يقع في شارع صغير خلف مركز الشرطة. راعني العدد الهائل من الرجال الذين كانوا داخله. كلّهم

منهمكون في لعب الورق. والكثير منهم يدخّنون النارجيلة. يتوجّه أخي إلى طاولة يجلس إليها ثلاثة رجال في سنّه. يستقبلونه بترحاب كبير ويبدون استغرابهم من مجيئه في مثل تلك الساعة. يقول لي أحدهم، بقليل من العتاب، إنّهم حُرموا من رؤية إبراهيم في الليل بسببي فهو لم يسهر معهم سوى مرّتين منذ قدومي إلى تونس.

ينضمّ إليهم أخي على الفور. ينقسمون إلى مجموعتين وينخرطون في اللعب. في البداية أتفرّج عليهم بلا اكتراث. لكن شيئًا فشيئًا تستهويني لعبتهم فأتابعها بشغف وأرقب حركاتهم باهتمام. أعجبتني أيضًا تعليقاتهم وملاحظاتهم وقهقهاتهم ونكاتهم وسخريتهم من بعضهم البعض، والتهكّمات التي كانت تنصبّ بين حين وآخر على كلّ من ارتكب خطأً في اللعب.

منذ فترة طويلة لم أشهد مباراة في لعب الورق حامية الوطيس كهذه، ولم أشعر بمثل تلك المتعة.

عندما يتوقّفون عن اللعب ويستعيدون شيئًا من هدوئهم يقدّمهم لي أخي. الأوّل موظّف مثله في شركة الكهرباء والغاز. أمّا الثاني فهو معلّم. والثالث ممرّض. كلّهم مهذّبون ولطفاء. وكلّ ما في سلوكهم وكلامهم يدلّ على أنّهم مبتهجون بوجود إبراهيم بينهم. هو أيضًا سعيد جدًّا برفقتهم، حتى أنّني أحسست بالذنب على أنّي حرمته دون أن أدري لعدّة ليال من هذه السهرات، وقرّرت أن أقترح عليه في المستقبل ألاّ يرغم نفسه على البقاء في البيت من أجلي وأن يلتحق ليلاً بأصدقائه متى يشاء.

يشرعون في الحديث عن حيّ البساتين. يتذمّر أخي من قلّة الأدب والحياء لدى الشباب، ويشتكي الممرّض من تزايد العنف والسرقة وتنامي ظاهرة الدعارة في الأعوام الأخيرة. ثم يتشعّب الحديث. ولا أدري كيف انتقلوا إلى موضوع أعمال الشغب الأخيرة في ضواحي باريس. والشيء الذي أثار انتباهي حقًّا هو أنّهم يولونها أهمّيّة كبيرة لم أكن أتوقّعها لدى أناس مثلهم.

ـ ما أصابك أذى من الأحداث؟

يسألني الموظّف فجأة فأحرّك رأسي بالنفي.

يردّ عليه إبراهيم على الفور:

ـ أيّ أذى؟.. أخي يسكن في باريس.. والأحداث وقعت في الضواحي الفقيرة.. الضواحي التي يسكنها العرب..

يسود الصمت. تحرجني الطريقة المتباهية التي يتحدّث بها أخي عنّي. ليست هذه هي المرّة الأولى التي يفعل فيها ذلك.

في كلّ مرّة أودّ أن أعبّر له عن انزعاجي من هذه الطريقة. غير أنّي لا أفعل، خوفًا من أن أجرح مشاعره خصوصًا أنّي على يقين من أنّ ما يدفعه إلى ذلك هو محبّته لي.

ـ الذين عملوا هذه الأعمال.. أوباش..

يتفرّس الموظّف في وجه المعلّم مستغربًا كلامه ويقول:

ـ لماذا أوباش؟.. هم بشر مثلي ومثلك.. لكنّهم فعلوا كلّ هذه الأشياء لأنّهم يعانون من مشاكل كثيرة.. أنا أعرف فرنسا.. الحياة فيها

صعبة.. والمعيشة غالية.. وهم بطّالة.. الكثير منهم درسوا وحصلوا على شهادات.. لكنّ الفرنسيس لا يشغّلونهم لأنّهم عرب ومسلمون..

يقول المعلّم وهو ينظر إليّ:

ـ ثمّة عنصريّة.. صحيح.. لكن ما كان يجب أن يتصرّفوا كالبهائم.. ما شفت كيف يتصرّفون لمّا يأتون إلى تونس في الصيف؟.. لا أخلاق.. ولا منطق.. وحتى مناظرهم بشعة!..

يسكتان. ظننت أنّ الموضوع انتهى. لكنّ النقاش بينهما ينطلق من جديد بعد أن يقول الموظّف بحماس:

ـ الحقّ معهم.. ولا بدّ أن يدافعوا عن نفوسهم.. لا بدّ أن..

يقاطعه المعلّم بانفعال:

ـ يدافعون عن أنفسهم بحرق سيّارات الناس المساكين؟..

ـ مساكين!.. نحن المساكين..

يمطّ المعلّم شفتيه امتعاضًا قبل أن يقول بلهجة لا تخلو من التأثّر:

ـ كنت أحسّ بالغيظ وأنا أرى كلّ يوم في التلفزة ما يحدث..

يهزّ الموظّف كتفيه هازئًا. يتابع المعلّم باللهجة نفسها:

ـ شوّهوا صورة العرب.. والمسلمين.. أبناء القحاب.. والفرنسيس ناس ملاح لا يستحقّون هذا..

يقول الموظّف بشيء من التشفّي:

ـ يستحقّون هذا.. وأكثر من هذا..

ـ كيف يستحقّون هذا؟.. سياسة الفرنسيس مع الفلسطينيّين والعرب والمسلمين أحسن سياسة في أوروبا..

يطلق الموظّف ضحكة عالية ويقول:

ـ فرانسا تقول كلامًا معسولاً للعرب.. لكنّ سياستها لا تختلف عن سياسة الدول الأخرى.. فرانسا لا تفكّر إلاّ في مصالحها..

انظر ماذا فعلت في الجزائر.. الجزائريّون يعانون إلى اليوم من جرائم فرانسا..

ـ هذه حكاية قديمة.. نحن نتحدّث عن الوقت الحاضر..

ـ وما رأيك في منع الحجاب؟.. لو كانت فرانسا تحبّ العرب والمسلمين كما تقول لما منعوا الحجاب.. الإنكليز والألمان ما منعوا الحجاب.. حتى الأمريكان ما منعوه..

ـ وما المشكلة في منع الحجاب في المدارس ومؤسّسات الحكومة؟.. الحجاب ممنوع في المؤسّسات العموميّة والمدارس في تونس وهي بلاد مسلمة.. فلماذا نستغرب لمّا تمنعه فرانسا؟..

ـ المشكلة يا سيّدي هي أنّ الحجاب فرض..

ـ لو كان فرضًا لما منعته تونس..

يلتفت الموظّف حوله ليتأكّد من أنّ أحدًا لا يستمع إلى ما يقولون ثم يسأل بصوت خفيض:

ـ أنت متأكّد من أنّ تونس دولة مسلمة الآن؟

ـ خرفت؟.. طبعًا.. تونس دولة مسلمة..

يقول الموظَّف بحدّة:

ـ لماذا لا تطبّق الشريعة إذن؟

يأتي النادل فيسكتون. حالما ينصرف يعودون إلى الموضوع. لكنّ نقاشهم لا يستمرّ طويلاً، إذ ينضمّ إلينا صاحب المقهى ويبدأ في الحديث عن مباريات كرة القدم التي دارت الأحد الماضي. يدافع كل واحد منهم بحماس عن فريقه المفضّل وينتقد الفرق الأخرى. ثم ينتقلون إلى الحديث عن الفريق الوطني والمباريات التي سيخوضها قريبًا. يسألونني إن كنت على علم بالانتصارات التي أحرزها في الأعوام الأخيرة. وحين أقول لهم إنّي أحبّ كرة القدم والفريق الوطني لكنّي لا أتابع منذ أعوام المباريات التي يخوضها، يعودون إلى الحديث عن فرقهم المفضّلة. يتواصل الحديث حتى ينصرف صاحب المقهى. يلتفت المعلّم إلى الموظّف ويسأله ساخرًا:

ـ تريد أن نطبّق الشريعة إذن؟..

ـ آ.. أريد تطبيق الشريعة..

ـ الآن؟.. في القرن العشرين؟

يصحّح الموظّف بلهجة متهكّمة:

ـ نحن في القرن الحادي والعشرين.. سيّدي المعلّم.. لم تحفظ درسك..

ثم يضيف وقد غيّر لهجته:

ـ تطبيق الشريعة فرض..

ـ تريدنا أن نعود إلى العصور الوسطى؟

يميل المرّض على أخي ويسأله:

ـ ما معنى العصور الوسطى؟

يجيبه وهو يتطلّع إليّ:

ـ لا أدري..

وفي اللحظة التي أهمّ فيها بأن أشرح له ذلك يقول المعلّم بقليل من التباهي:

ـ العصور الوسطى هي عصور الجهل والتخلّف..

يقول الموظّف، وهو ينظر إلينا كأنّه يحثّنا على المشاركة في النقاش:

ـ الإسلام لا علاقة له بالتخلّف.. لا من بعيد ولا من قريب.. الإسلام دين علم وحضارة.. ما ثمّة دين يشجّع على العلم والتقدّم مثل الإسلام..

يحرّك المعلّم رأسه موافقًا قبل أن يقول:

ـ المشكلة ليست في الإسلام كدين.. المشكلة في الذين يتشدّقون بالإسلام.. وفي كلّ هؤلاء الذين نصّبوا نفوسهم محامين عن الإسلام، وهم أبعد خلق الله عن الإسلام..

بغتة يندفع أخي بكرسيّه إلى الوراء محدثًا ضجيجًا ويقول بتبرّم:

ـ يكفي الآن.. تعبنا من هذا الكلام.. وما دخلنا نحن في هذه المسائل؟..

www.mlazna.com-RAYAHEEN

يستأنفون اللعب. ينسون بسرعة النقاش وكلّ ما دار خلاله ويشتدّ حماسهم من جديد. يعودون إلى ملاحظاتهم الساخرة وتهكّماتهم اللاذعة ونكاتهم وقهقهاتهم العالية. أتابع اللعبة بالشغف نفسه. غير أنّي أسأم بعد وقت قصير وأشعر بتعب مفاجئ، كما أنّي بدأت أضيق بدخان التبغ الذي كان يعبق في الجوّ بالرغم من أنّ كلّ ما في المقهى من باب ونوافذ كان مفتوحًا على مصراعيه.

حين يفطن إبراهيم إلى أنّي متضايق يقول لي إنّه بإمكاني أن أعود إلى البيت، وإنّ ذلك لا يزعجه على الإطلاق، وهو لن يتأخّر كثيراً على أيّ حال وسيلتحق بي فور الانتهاء من اللعب. عندما أقوم للمغادرة يقفون كلّهم لتوديعي. الغريب أنّي بعد أن أخطو بضع خطوات في الشارع وأستنشق هواء الليل الصافي أستعيد كلّ قواي. لم أعد أشعر بالتعب، بل ويسري في جسدي نشاط وحيوية عجيبان. لا أتوجّه إلى العمارات كما كنت أنوي وإنّما أسير صوب الجزء الشعبي من حيّ البساتين.

أتذكّر ما قاله لي إبراهيم من أنّ المكان خطر في الليل، وأنّ السرقات والاعتداءات تكثر فيه في مثل تلك الساعة. إلاّ أنّ هذا لا يثنيني عن التوجّه إليه. أدرك وأنا أتوغّل فيه أنّه نظيف خلافًا لما بدا لي في المرّة الماضية. كانت أغلب الدكاكين والمتاجر مفتوحة على الرّغم من أنّها تكاد تكون خالية من الزبائن. وكان يجلس أمام بعضها رجال ونساء يتحدّثون أو يستمعون إلى الراديو وهم يشربون الشاي.

حين أستدير عائداً أنتبه إلى أنّني ابتعدت كثيراً عن الشارع الرئيسي وأنّ المكان الذي كنت فيه شبه خال فأسرع الخطى.

وبينما كنت أعبر أحد الشوارع أفاجأ بأطفال يخرجون من مكان مظلم ويطوّقونني. كانوا خمسة وفي أعمار متقاربة.

لا أشعر بالخوف فهم صغار حقًّا وكبيرهم، كما قدّرت، لا يتجاوز الثانية عشرة. كما أنّه لم يكن لديّ ما يُخشى عليه. وحتى الفلوس لم يكن عندي منها سوى بضعة دنانير.

ـ ماذا تفعل هنا؟

يسألني أكبرهم:

ـ أتفسّح..

يقول آخر:

ـ تتفسّح.. أم تتفرّج على بنات الناس؟..

ـ أيّ بنات؟

يتقدّم أحد الأطفال ويقول لي بلهجة أرادها أن تكون جافّة:

ـ تظن أنّي ما شفتك.. كنت تتبع أختي من قليل..

كنت بالفعل قد نظرت قبل قليل إلى فتاة في العشرين. كانت تحرّك مؤخّرتها الممتلئة بطريقة مثيرة. لكنّي لم أتبعها. كلّ ما في الأمر أنّها كانت تسير على بعد ثلاث خطوات أو أربع في الاتّجاه نفسه.

ـ ما كنت أتبعها.. كانت تسير أمامي..

ـ كذّاب..

يقول أكبرهم. أمسك بيده وأساله بصوت مرتفع لكي أبعث في نفسه قليلاً من الخوف:

- وما دخلك أنت؟

يردّ وهو يخلّص يده:

- أنا ولد عمّها..

- ما كنت أتبع بنت عمّك.. كانت تمشي أمامي.. هذا كلّ ما في الحكاية..

أقول بانفعال وأندفع للخروج من الدائرة التي وجدت نفسي فيها محاصراً. يزدادون التفافاً حولي لمنعي من ذلك. لكنّي أدفعهم بقوّة وأواصل سيري. أخذت الشتائم تنهال عليّ. لا أعير ذلك أيّ اهتمام ممّا أجّج غضبهم على ما يبدو، فراحوا يقذفونني بالحجارة. أسرع الخطى. وعندما أرى أنّهم جادّون في مطاردتي أخشى أن يحاصروني من جديد فأشرع في الركض بينما كانت الحجارة تتساقط حولي وأصواتهم تلاحقني بكلّ ما أعرف من أقذع الشتائم.. ولد القحبة.. نيّاك.. نعتدين أمّك.. تعتدين بوك..

-١٤-

أقف على الرصيف مقابل المبنى الذي تشتغل فيه ليلى. وأشرع في مراقبة المدخل. لم يطل انتظاري، فقد خرجت بعد بضع دقائق. وخلافًا لما كنت أتوقّع لا يبدو على وجهها أيّ فرح عندما تشاهدني. لا تفاجأ أيضًا حين أقول لها إنّي أودّ العودة برفقتها كأنّها كانت تنتظر ذلك. تقبّلني كالعادة وتسير إلى حيث أوقفت سيّارتها فأتبعها صامتًا.

عندما اقترحت عليّ قبل يومين أن أعود معها في السيّارة كنت شبه واثق من أنّ هذا لن يحدث أبداً، فالحافلة لا تكون مكتظّة في الأوقات التي أرجع فيها إلى البيت. ثم إنّي غالبًا ما أفضّل أن أكون وحيداً أثناء تنقّلاتي بين مركز المدينة وحيّ البساتين.

لكن تلك المرّة وجدت نفسي مرغماً على ذلك، فقد كان هناك حشد هائل في المحطّة. والسبب هو أنّي تباطأت أكثر من اللازم في العودة. وقد كنت متأكّداً من أنّ عدد الركّاب سيتزايد كثيراً بعد خروج

الموظّفين من مكاتبهم والتلاميذ من مدارسهم وأنّ عليّ أن أنتظر طويلاً قبل أن تخفّ الحركة.

في السيّارة أفطن من طريقتها في السياقة إلى أنّها مرتبكة. من المؤكّد أنّ اضطرابها يعود إلى وجودنا معًا في مكان مغلق. أنا أيضًا مرتبك، فقد كانت تلك هي المرّة الأولى التي أجد فيها نفسي في وضع حميمي كهذا مع امرأة مثيرة مثل ليلى. امرأة كنت معجبًا بها في فترة ما ويخفق قلبي قليلاً كلّما رأيتها.

كانت ترتدي فستانًا قصيرًا بلا أكمام يكشف عن جزء كبير من فخذيها. وبالرّغم من أنّ نافذتي السيّارة الأماميّتين مفتوحتان، فقد كان عطرها يملأ المكان. السيّارة صغيرة. ومقعدها قريب جدًّا إلى درجة أنّ ذراعها العارية تلامس ذراعي أحيانًا عندما تغيّر السرعة.

تعلّق بسخرية على كلّ ما يصادفنا في الطريق. السيّارات. المارّة. رجال الشرطة. وبين الحين والآخر تطلق ضحكة فاضحك بدوري. وفيما بعد تسائلني عن الحياة في فرنسا فأسألها أنا أيضًا عن مهنتها وظروف العمل في إدارتها. كلانا متضايق بسبب هذا القرب الشديد من بعضنا البعض، ويحاول أن يتفادى الصمت قدر الإمكان ويسعى إلى التخلّص من وطأة هذا الإحساس بالاضطراب أو التخفيف منه على الأقلّ. غير أنّ كلّ ذلك لم يكن كافيًا. ينتهي الكلام ويسود الصمت الذي كنّا نخشاه.

وبينما كنت أفكّر أنّي ارتكبت خطأ حين توجّهت إلى مكان عملها، للعودة في سيّارتها في غياب زوجها، تدسّ في المسجّل شريطًا

بحركة عصبيّة فيرتفع صوت صليحة. لم أكن أتصوّر أنّ امرأة مثلها تسمع هذا النوع من الأغاني القديمة.

أستعيد هدوئي وأنا أصغي إلى الأغنية الأولى. كانت حزينة تثير الشجن في النفس لكنّها عذبة. أستدير قليلاً وأرقب ليلى خلسة وهي تخبط المقود خبطات خفيفة لمجاراة اللحن. يداها الصغيرتان ناعمتان جميلتان. كنت لا أولي اليدين والقدمين لدى المرأة أيّ اهتمام. واكتشفت فيما بعد أنّها أجزاء أساسيّة من جسد الأنثى، بل صرت أعتقد أنّها هي التي تحدّد مدى رقّتها وأنوثتها. كانت أصابعها رقيقة لا أثر فيها للانتفاخ والتورّم اللذين نلحظهما في أيدي النساء من كثرة العمل في المنزل. أصابع امرأة تعرف قيمة اليدين على ما يبدو وتعتني بهما. لا شكّ أنّها تدهنهما باستمرار بكريمات مستوردة من إيطاليا يشتريها لها زوجها مع مستحضر صباغة الشعر من صديقه الذي يعمل في الباخرة الرابطة بين تونس وجنوة. وكانت أظفار يديها مطليّة باللون نفسه الذي طلت به أظافر قدميها.

ويبدو أنّ ليلى قد بدأت هي أيضًا تسيطر على اضطرابها. حركاتها باتت أكثر طبيعيّة كما أنّها صارت تلقائيّة في حديثها.

وشيئًا فشيئًا عادت كما عرفتها دائمًا، ممّا أشاع الارتياح في نفسي. أخذت تغنّي مع صليحة غير عابئة بالأخطاء التي ترتكبها وخصوصًا بصوتها الذي لم يكن جميلاً بالمرّة.

تشتدّ حركة المرور. لا أنزعج من ذلك. بالعكس تمنّيت في لحظة ما أن تشتدّ أكثر وأن تظلّ السيّارة تسير ببطء حتى حيّ البساتين لكي

أبقى برفقة ليلى أطول وقت ممكن. بين حين وآخر، تتوقّف السيّارات من شدّة الازدحام. تنتهز ليلى الفرصة فتنظر في المرآة لتسوّي شعرها، أو تفتح حقيبتها اليدوية للتطلّع إلى ما بداخلها، أو تقلّب أشرطة الأغاني المكدّسة في صندوق بالقرب من رجليها.

حين نصل إلى حيّ البساتين لا تسلك الشارع الرئيسي وإنّما تنعطف منذ بدايته إلى اليمين، للتوغّل في شوارع فرعيّة.

لا أدري لماذا فعلت ذلك. هل أرادت أن تتحاشى الشارع الرئيسي حيث العمارات التي يقيم فيها أخي لكي لا ترانا يسرى أو أحد ممّن يعرفها؟ أم أرادت أن تطيل الطريق قدر المستطاع لأنّها تشعر هي أيضًا برغبة في البقاء معي أطول وقت ممكن؟

نقترب من الجامع فأتحرّك معلنًا عن استعدادي للنزول. تخفّف من سرعة السيّارة وتقول:

ـ الوقت ما زال باكرًا.. وماذا ستفعل الآن في البيت؟.. مع يسرى؟..

لا أجد ما أقول، فقد باغتني سؤالها.

ـ أنت ما تعرف بيتي؟..

أحرّك رأسي بالنفي.

ـ وما تحبّ تشوفه؟

ـ الآن؟..

تقول وهي تزيد من سرعة السيّارة:

ـ آ.. الآن.. تعال.. ستري بيتي..

لم تكن العمارة بعيدة. شقّتها أكبر من شقّة يسرى وأثاثها أفخم. لكنّها لم تكن نظيفة ومرتّبة مثل شقّة أختها. ثمّة في الصالون مكتبة صغيرة كُدّست على رفوفها كتب معظمها روايات عربيّة وأجنبيّة. إنّه البيت الوحيد من بين كلّ بيوت الأقرباء الذي أرى فيه مكتبة. لقد سبق أن شاهدت كتبًا قليلة في بعض هذه البيوت. لكنّها كانت مصاحف وكتبًا دينيّة مثل «عذاب القبر» و«العلاج بالقرآن» و«قصص الأنبياء» و«مناسك العمرة والحجّ» وما شابهها..

يعتريني الاضطراب من جديد حين أجد نفسي معها داخل الشقّة. أما ليلى فهي تبدو لي أكثر ارتياحًا ممّا كانت.

تصرّ على أن تريني كلّ شيء في شقّتها. الصالون. المطبخ. غرفة النوم. غرفة ابنها. الحمّام. حتى المرحاض رأيته.

أتبعها صامتًا وهي تقودني من مكان إلى آخر. كانت فخورة بشقّتها. وكلّما أبديت إعجابي بشيء ما أشعّ وجهها ابتهاجًا.

الشيء الوحيد الذي لم تقدني إليه هو الشرفة الصغيرة. أتطلّع إليها من خلال النافذة، فتقع عيناي على ملابسها الداخليّة منشورة على حبل. عندما تلاحظ ذلك تقودني إلى مكان آخر.

نعود إلى الصالون ونجلس على الكنبة مقابل المكتبة. أردت أن أقول شيئًا ما في تلك اللحظات الحرجة، إلاّ أنّي لم أجد ما أقول. أمدّ رأسي وأتطلّع إلى الكتب محاولاً قراءة عناوينها. وحين ألتفت إليها

أكتشف أنّها تحدّق فيّ. تبتسم وتحني رأسها. ثم تميل قليلاً باتّجاهي وترفع يديها الاثنتين، لتسوّي شعرها فينكشف لي إبطها المحلوق.

منذ أن دعتني إلى زيارة بيتها أحسست بالطبع أنّها تنوي شيئًا ما. وقد تأكّد ذلك حين وجدت البيت خاليًا، وخصوصًا عندما بدأت تسوّي شعرها بتلك الطريقة المغرية. بل صرت على يقين من أنّ دعوتها لي للعودة معها في السيّارة، بعد أن أخبرتني بأنّ زوجها سيتغيّب لمدّة أربعة أيّام، لم تكن بريئة وهي تندرج ضمن خطّة لاستدراجي.

أسألها عن ابنها فتجيب بأنّه في المدرسة. وبسرعة تردف وهي تضع ساقًا على ساق أنّه لن يتأخّر كثيرًا في العودة.

أدرك عندئذ أنّها تريدني فورًا. ولم يخطئ حدسي فما إن اقتربت منها حتى مدّت رأسها عارضة عليّ شفتيها الشهيّتين.

أشرع في تقبيلها بنهم. وفي بضع لحظات كانت تستلقي تحتي عارية تمامًا.

يظلّ جسدانا العاريان اللذان ينضحان عرقًا ملتصقين. لا ننبس بكلمة ولا نقوم بأيّ حركة لوقت طويل، كما لو أنّ حمّى الرغبة التي اشتعلت فيهما منذ حين قد أنهكتهما واستنفدت كلّ ما فيهما من طاقة. أقول وأنا أرفع رأسي لأتحاشى الرائحة التي تنبعث من إبطها:

ـ ما تخافين أن يجيء واحد من جيرانك أو معارفك الآن؟

تغمغم وهي تقبّلني قبلات صغيرة متتابعة:

ـ اطمئنّ.. ما يجيء أيّ واحد..

تجلس إلى جواري بعد أن نرتدي ثيابنا. كان كلّ ما فيها يوحي بأنّها سعيدة وبأنّها غير نادمة على أنّها استسلمت لي وبمثل هذه السهولة.

ـ تتزوّجني.. لو طلّقت؟..

تعقد الدهشة لساني. أتطلّع إليها في ذهول.

ـ أريد أن أعيش معك في فرنسا..

ـ ولماذا تطلّقين؟.. وضعك ممتاز.. موظّفة.. ومتزوّجة.. وعندك ولد.. وبيت حلو كهذا.. الكثيرون يتمنّون أن يكون وضعهم مثل وضعك..

بعد تردّد أضيف:

ـ وزوجك رجل طيّب.. ويحبّك..

ـ آ.. لكنّي تعبت من تونس.. الحياة صعبة هنا..

ـ وتتصوّرين أنّ الحياة في فرنسا سهلة؟.. إنّها أصعب..

ـ أعرف.. ولكنّها أحلى.. في تونس أحسّ أنّي مخنوقة.. ما أستطيع أن أتنفّس.. كلّ الناس يراقبون بعضهم البعض.. تونس صارت مثل جهنّم..

لم أكن أتصوّر أنّها تتألّم إلى هذا الحدّ؛ فتصرّفاتها كانت توحي لي دائمًا بأنّها امرأة قويّة متماسكة راضية عن حياتها، خصوصًا أنّ زوجها من أكثر الرجال تفتّحًا وتحرّرًا.

ـ هذه البلاد للرجال.. المرأة هنا لا يمكنها أن تعيش.. ما تستطيع حتى أن تلبس ما تريد.. واذا فعلت يقولون عنها قحبة..

www.mlazna.com-RAYAHEEN

التوانسة يفتخرون بأنّ المرأة في تونس حرّة ولها حقوق لا توجد في أيّ بلد عربي آخر.. لكن ولا واحد منهم يحترم هذه الحقوق.. خصوصًا الإخوانجيّة.. تعرف أنّهم هدّدوني؟..

ـ هدّدوك!..

ـ آ.. هدّدوني.. ذات مرّة لـمّا كنت أمشي في شارع ابن خلدون أحسست أنّ شابًّا يتبعني.. ظننت أنّه واحد من هؤلاء الذين يعاكسون النساء.. ما اهتممت به وواصلت طريقي.. ولكن بعد خطوات.. اقترب منّي.. مال عليّ وقال لي إنّ ثيابي ثياب قحاب.. وإنّه يجب أن ألبس ثيابًا محتشمة.. وإلاّ فإنّهم سيرشّون وجهي وصدري بماء الفرق.. تصوّر.. يريدون أن يرشّوني بهذا الأسيد القاتل.. ليشوّهوني. لماذا؟.. لأنّي عرّيت زندي.. إنّهم مجانين.. مجرمون.. سمعت أنّ واحدًا منهم ذبح أخته المطلّقة لأنّه شكّ في أنّها على علاقة برجل!..

تتناول سيجارة من علبة كانت على الطاولة التي أمام الكنبة. تشعلها وتدخّن. أتذكّر وأنا أتأمّل أصابعها أنّ ابنها سيعود قريبًا. وبينما كنت على وشك النهوض للمغادرة تسألني:

ـ ماذا كنت تفعل في المجمّع التجاري.. يوم قابلتك؟

ـ كنت أتفسّح..

تبتسم وتقول بلهجة ساخرة:

ـ تتفسّح فقط؟.. ظننت أنّك كنت تتبع نعيمة..

ـ أتبعها!.. ولماذا أتبعها؟.. كنت أتفسّح فقابلتها بالصدفة.. كما قابلتك..

ـ لاحظت أنّ الرجال يحبّونها.. ما أعرف الشيء الذي يعجبهم فيها!..

أدرك أنّ ليلى تتيح لي فرصة نادرة لأطرح عليها السؤال الذي يؤرّقني ولم أجرؤ على طرحه، لا على يسرى ولا على إبراهيم. أقول بلا اكتراث:

ـ إنّها امرأة غريبة..

لا تقول شيئًا. وعندما تنهض وتتوجّه إلى النافذة أتابع:

ـ في ليلة من الليالي شفت رجلاً في بيتها..

أروي لها الحادثة وأصف الرجل بدقّة فتهزّ رأسها هزّة خفيفة وتقول:

ـ أعرفه.. يقولون إنّه أخوها.. والله أعلم..

أقترب منها فأشمّ من جديد رائحة إبطها. الغريب في الأمر أنّي لا أجدها كريهة هذه المرّة وإنّما مهيّجة للشهوة.

لو كان لدينا ما يكفي من الوقت لضاجعتها من الخلف بقوّة. ولأوّل مرّة أتخيّلها زوجة لي. أتخيّل هذا الجسد بكلّ ما فيه حلالاً لي. أدخله متى أشاء على سنّة الله ورسوله. ربّما لن أعرف الطمأنينة والراحة اللتين أعرفهما مع كاترين. لكنّي سأتمتّع بالتأكيد بهذا الجسد المثير، خصوصًا أنّي اكتشفت أنّ ليلى تجيد المضاجعة؛ فما فعلته لي منذ لحظات أذهلني رغم أنّ ذلك تمّ بسرعة وفي ظروف غير ملائمة.

إنَّ ما يعجبني حقًّا في ليلى هو تشبُّثها بحرّيّتها وإصرارها على أن تتمتّع بها في كل لحظة. تفعل ذلك بدون تكلّف أو مبالغة. لا ينتابها أيّ إحساس بالذنب. ولا تشعر أنّها تتحدّى أحداً أو تستهين بالتقاليد وتتجاوز حدود الأدب والحياء. وهذا ما يصدم أختها يسرى وكلّ الذين ينتقدون تصرُّفاتها.

أتذكّر زوجها فأشفق عليه. لا لأنّه يعيش مع امرأة مثل ليلى فهذا من حسن حظّه، ولكن بسبب ما يتناهى إلى سمعه بالتأكيد ممّا يقال في الحيّ عن زوجته وعن ضعفه وخوفه منها. وبالرُّغم من أنّ علاقتي به سطحيّة، أحسّ بالندم على ما فعلت منذ حين. إلاّ أنّ ما يخفّف من ندمي هو أنّ زوجته هي التي أرادت ذلك وخطّطت له بإحكام على ما يبدو. كان باستطاعتي بالطبع ألاّ أستسلم لها بل حتى أن أتجنّب العودة معها في السيّارة. ولكن لا بدّ أن يكون المرء ملاكًا لكي يرفض الاستجابة لامرأة مثل ليلى.

ـ الآن.. لازم تخرج..

تقول فجأة. تردف وهي تطفئ سيجارتها في المنفضة.

ـ إبني سيجيء بعد دقائق..

ـ ١٥ ـ

لا أجرؤ على العودة إلى بيت أخي بعد أن أفارق ليلى. في الشارع أنتبه إلى أنّني لم أغتسل وهو ما أفعله في العادة بعد كلّ مضاجعة. كانت رائحة عطر ليلى الممزوج بعرقها لا تزال عالقة في جسدي، بل خُيِّل إليّ في لحظة ما أنّ رائحة سائل منوي تنبعث منّي. أسير على مهل في الشوارع المجاورة. كنت في حاجة إلى أن أتمشّى قليلاً لأستوعب ما حدث لي وأستعيد هدوئي.

عندما أصل إلى البيت أتشمّم ملابسي مرّة أخرى قبل الدخول. يعتريني الاضطراب لـمّا أكتشف أنّ رائحة ليلى لم تتلاش.

إبراهيم واقف في مدخل الحمّام يشرف على استحمام وائل. حين تقع عيناه عليّ يسألني باستغراب:

ـ أين كنت؟.. كنت أظنّ أنّي سأجدك في البيت!..

ولا أفهم سؤاله إلاّ عندما يقترب منّي ويقول:

ـ شفتك من وقت قليل..

ـ أين؟

يميل عليّ ويقول بصوت منخفض:

ـ في سيّارة ليلى.. كنت في الحافلة.. لما توقّفت أمام الضوء الأحمر التفتّ بالصدفة فرأيت السيّارة.. أشرت لك بيدي مرّات كثيرة.. لكنّك ما التفتّ إليّ..

تسري قشعريرة هائلة في جسدي وأبقى مسمَّرًا في مكاني لا أدري ماذا أفعل أو ماذا أقول. وفي التفاتة عابرة إلى المطبخ أشاهد يسرى. كانت تدير لي ظهرها. وكانت منهمكة في الطبخ. أعبر الممرّ بسرعة لكي لا تراني. لم يكن لديّ ما يكفي من الجراة لكي أتحدّث إليها فور وصولي إلى البيت، بل ولم أكن قادرًا على تحمُّل نظراتها بعد كلّ الذي حصل لي مع أختها.

يغمرني الارتياح حين يسكت أخي ويعود إلى مساعدة وائل على الاستحمام. وفي اللحظة التي أستدير فيها لدخول غرفتي يتناهى إليّ صوتها:

ـ كنت مع ليلى وزوجها؟

كانت يسرى منتصبة في مدخل المطبخ. بيدها اليمنى سكّين لتقطيع اللحم، وبالأخرى منديل أبيض ملطّخ بالدم. يخطر لي أن أكذب عليها. بيد أنّي لا أستطع.

ـ مع ليلى فقط..

ـ أين كان زوجها؟.. في العادة يرجعان معًا..

ـ زوجها في مدنين..

ـ ماذا يفعل في مدنين؟..

ـ لا أدري..

تدخل المطبخ دون أن تنبس بكلمة. أدلف إلى غرفتي. وأغلق الباب. كلّ ما كنت أخشاه قد حدث. أستلقي على السرير وأبدأ في تأمُّل ما كان يظهر لي من السماء من خلال النافذة. أفطن بعد برهة إلى أنّي أعقّد الأمور بسلوكي هذا. عليّ أن أبدو طبيعيًّا لذلك ينبغي أن أتصرَّف كما أتصرَّف كالعادة، وخصوصًا ألاّ أحبس نفسي في الغرفة.

أخرج على الفور. وأتوجّه إلى الصالون. أجلس على الكنبة في موضع يمكّنني من أن أراقب يسرى دون أن تراني.

كان فستانها طويلاً فضفاضًا. وبالرُّغم من ذلك فقد كان يكشف عن ملامح جسدها كلّما مالت أو انحنت أو قامت بحركة سريعة. يبدو لي جسدها في جزئه السفلي شبيهًا إلى حدّ بعيد بجسد أختها.

أشيح عنها بوجهي لكي لا تستولي عليّ مثل هذه الأفكار. وأشرع في التطلُّع إلى اللّوحات والصور المعلّقة على الجدران.

هناك صورة بالألوان لوائل وهو في الأشهر الأولى من عمره. وعلى يمينها ويسارها لوحتان بالحجم نفسه. في إحداهما كُتبت بخطّ أسود جميل كلمة «اللّه» وفي الأخرى «محمّد».

إبراهيم ويسرى يحبّان هاتين اللوحتين وهما فخوران حقًّا بامتلاكهما، فقد اشتراهما أخي من أحد هؤلاء الحجّاج الذين يستغلّون فرصة أداء فريضة الحجّ ليجلبوا من العربيّة السعوديّة تحفًا ولوحات وسواكًا وكحلاً وعطوراً وقوارير تحتوي على ماء زمزم، وأشياء من هذا القبيل، يبيعونها كما قال أخي بأسعار مرتفعة لمن لا تسمح له ظروفه المادّيّة بالحجّ إلى بيت الله الحرام.

وتحت صورة وائل صورة كبيرة لإبراهيم ويسرى في يوم زفافهما. كانت يسرى سمراء نحيلة وأقلّ جمالاً ممّا هي عليه الآن. كانت تنظر إلى الأمام بشرود. تبدو حزينة أو غير مكترثة بما يحدث حولها كما لو أنّ الزفاف ليس زفافها. وإلى جانبها يقف إبراهيم وعلى شفتيه ابتسامة خفيفة. هو أيضًا كان نحيلاً. وبالرّغم من أنّه يكبر يسرى بعدّة أعوام فإنّه يبدو في الصورة في عمرها.

ـ أنت اليوم لست كالعادة.. كأنّك كئيب..

لم أفطن ليسرى لـمّا دخلت الصالون فقد كنت مستغرقًا في تأمّل الصورة.

ـ توحّشت كاترين؟

يظلّ بصرها مركّزًا عليّ.

ـ رأسي يوجعني..

لا ادري لماذا قلت ذلك، فأنا لم أكن أشعر بأيّ وجع لا في رأسي ولا في أيّ موضع آخر من جسدي. تخرج يسرى. وبعد برهة تأتيني

بكأس ماء وقرصي أسبرين أتناولهما على الفور. وعندما تجلس على طرف الكنبة أدرك أنّها ترغب في الحديث عن أختها.

ـ ما شفت ليلى قبل اليوم؟..

ـ لا.. هذه أوّل مرّة أشوفها.. من وقت أتيت..

لم أشأ أن أقول لها الحقيقة مخافة أن تنتابها الشكوك لو علمت أنّي التقيت أختها مرّتين قبل ذلك اليوم، وأنّها كانت في كلّ مرّة وحيدة.

ـ أنا ما قابلتها من مدّة..

أرفع رأسي وأنظر إليها باهتمام.

ـ ما قالت لك إنّنا لا نكلّم بعضنا بعضًا من مدّة؟

ـ لا..

أسألها بعد برهة عن سبب الخصومة متظاهراً بأنّي لا أعرفه.

ـ تصرّفاتها.. ما عدت أتحمّلها.. وأيضًا ما عدت أتحمّل طريقتها في اللباس.. فضحتنا في الحيّ.. والكثير من الناس يقولون عنها إنّها فاسدة..

لم أكن أتصوّر أنّ سلوك ليلى يشغل بالها إلى هذا الحدّ، وأنّها تتألّم بسبب ذلك.

ـ أنت رجل عاقل وتفهم.. أحبّ أن أعرف رأيك.. هل يعقل أن تتصرّف بهذه الطريقة امرأة بنت عائلة مثل عائلتنا.. متزوّجة من رجل طيّب ولد حلال.. ولها ولد.. وأن تلبس حاجات ضيّقة؟.. آخر

مرّة شفتها كان صدرها كلّه عاريًا.. ونهودها مثل ضرع البقرة تترجرج كلّما تحرّكت.. وترمتها مكوّرة كالبطّيخة.. هل يعقل هذا؟.. وكلّ مرّة أكلّمها وأطلب منها أن تستحي تقول لي إنّها حرّة.. وإنّني أنا امرأة متخلّفة.. من عام ككح..

أحاول أن أتخيّل ردّ فعلها لو أخبرتها بأنّ هذا الرجل العاقل الذي تريد أن تعرف رأيه في مسألة حسّاسة مثل هذه كان قبل لحظات قليلة يضاجع أختها وفي.. عقر دارها!..

ـ أخوك يقول لي ما تهتمّي بها.. يقول إنّ لها رجلاً.. والجميع يعرف هذا.. وأنّ المتضرّر الوحيد هو رجلها.. ولكن أنا لا أقدر أن أسكت على ما تشوفه عيني.. لازم تسمع كلامي.. لازم تحتشم وتستحي.. كلّ الناس في الحيّ يعرفون أنّها أختي وأنّي أكبر منها.. مرّات أسمعهم يتحدّثون عنها وراء ظهري.. فأتمنّى أن أموت.. أتمنّى أن تنشقّ الأرض وتبلعني.. حتى لا أتحمّل العار والفضيحة..

ترفع يدها لتمسح دموعًا أخذت تنهمر فجأة على خدّيها. تصيبني الدهشة وأقترب منها وأنا أفكّر في ما يجب أن أفعله.

هل أواسيها؟ ولكن ماذا سأقول لها أنا الذي كنت منذ وقت قصير متمدّدًا عاريًا فوق جسد أختها؟ هل أمسك بذراعها أم أضع يدي على كتفها؟ كنت فيما مضى أفعل ذلك بشكل تلقائي. كنت ألمس يديها. كتفيها. ظهرها. زنديها وحتى شعرها بدون أن أحسّ بالحرج أو أشعر أنّي أضايقها أو أضايق إبراهيم؛ فيسرى هي بمثابة أخت لي. لكن الآن وقد تحجّبت لا أجرؤ على ذلك.

ومن حسن الحظّ أنّها توقّفت بسرعة عن البكاء. تلتفت إليّ وتبتسم كما لو أنّها تعتذر عمّا بدر منها. أرى في ابتسامتها كلّ طيبتها وصفائها وعذوبتها. وتتملّكني رغبة صادقة في أن أحتضنها قليلاً بين ذراعيّ لأعبّر لها عن عمق المحبّة التي أكنّها لها.

ـ أعجبتك السيّارة؟

تسألني معلنة بذلك عن نيّتها في تغيير موضوع الحديث ووضع حدّ لتشكّياتها. أقول متظاهرًا بعدم الفهم:

ـ أيّ سيّارة؟

ـ سيّارة ليلى..

ـ سيّارة ليلى!.. هذه ليست سيّارة.. هذه كريطة..

تنفجر ضاحكة. يغمرني ارتياح عميق. كنت أعرف أنّها تغار من أنّ أختها تمتلك سيّارة. ولذلك بالغت في الحطّ من قيمة سيّارة ليلى لكي أدخل إلى قلبها أقصى ما يمكن من البهجة.

ـ لا أدري إلى حدّ الآن كيف وصلنا بسيّارة كهذه إلى حيّ البساتين.. كنت أنتظر بين لحظة وأخرى أن تسلم الروح في الطريق.. وأن نرجع على القدمين..

يتحوّل ضحكها إلى قهقهات. يسأل إبراهيم ووائل عمّا يضحكها.

ـ سيّارة ليلى..

أقول بصوت عال. وأواصل بحماس:

www.mlazna.com-RAYAHEEN

- تسمّيها سيّارة.. ولكنّها في الحقيقة كريطة بأربع عجلات..

تتناهى إلينا ضحكات إبراهيم ووائل من الحمّام. وحين تتوقّف يسرى عن الضحك تقول:

- المرّة القادمة.. لازم تأتي بسيّارة جديدة فاخرة من فرانسا.. حتى تعرف ليلى ما معنى السيّارة.. وتكفّ عن الافتخار بكريطتها..

يأتي وائل عاريًا إلاّ من سرواله الداخلي. ثم يلحق به إبراهيم وهو يحمل ثيابه. وقبل أن يسلّمها إلى يسرى يقول وهو يتهالك على الكنبة:

- تعبت.. في كلّ مرّة أعاونه على الحمّام أرى النجوم في القائلة..

تقول له يسرى:

- أحبّ أن أراك هكذا.. حتى تعرف كم أعاني لمّا أحمّمه..

يقول إبراهيم بشيء من الانفعال:

- تعانين؟.. احمدي ربّك.. عندك ولد واحد.. ماذا ستفعلين لو كان عندك ثلاثة أو أربعة؟..

حين تنتهي يسرى من مساعدة وائل على ارتداء ملابسه الباقية تعود إلى المطبخ. يفتح إبراهيم التلفزة. أغادر الصالون.

وحالما أدخل غرفتي يلتحق بي وائل. يجلس بجواري فتغزو أنفي رائحة الصابون المعطّر. أغبطه على ذلك وأودّ في تلك اللحظة أن أستحمّ أنا أيضًا لكي أطهّر جسدي من كلّ ما بقي عالقًا به من رائحة ليلى وعرقها.

- شفت هيثم؟..

- أيّ هيثم؟..

- ابن خالتي.. ليلى؟

أسأله مندهشًا:

- وأين تريدني أن أراه؟

- في بيتهم..

- في بيتهم!.. ما ذهبت إلى بيتهم..

يتفرّس في وجهي وهو يقول:

- وأين رأيت خالتي ليلى إذن؟

- رأيتها في تونس.. وعدت معها في سيّارتها.. هذا كلّ ما في الحكاية..

عندما يخرج وائل أنزع حذائي. ثم أتمدّد على السرير. وحالما أغمض عينيّ تتراءى لي صورة ليلى وهي عارية تحتي. لا أصدّق وأنا أستعيد تلك اللحظات النادرة أنّ ما حدث قد حدث فعلاً. كأنّها تنتمي لحلم لذيذ من هذا النوع من الأحلام التي لا تزورنا سوى مرّات قليلة في العمر..

لم أحاول أبدًا أن أراود ليلى خصوصًا منذ أن تزوّجت. بل ولم يخطر ببالي على الإطلاق أنّي سأضاجعها في يوم من الأيّام. لا لأنّي لا أشتهيها فليس هناك رجل فيما أتصوّر في حيّ البساتين لا يشتهي امرأة مثل ليلى، وإنّما لأنّها أخت يسرى وأعدّها من أفراد العائلة المقرّبين.

لقد كان كلّ اهتمامي طوال الأيّام التي أمضيتها في الحيّ منصبًّا على نعيمة.

ولكن ها هي الصدفة تشاء أن تكون أخت أعزّ امرأة لديّ في العائلة كلّها هي أوّل تونسيّة أمارس معها الجنس بعد أعوام طويلة..

الغريب أنّه في اللحظة التي بلغنا فيها الذروة، في تلك اللحظة الاستثنائيّة التي كانت فيها ليلى تتأوّه تحتي من شدّة اللذّة، تذكّرت اسم زوجها!..

- ١٦ -

أقضي كلّ الصباح في سوق الخضر والفواكه المركزي فهو من أحبّ الأماكن في المدينة إلى نفسي. أحبّ كلّ شيء في هذا السوق. أشعر بمتعة هائلة وأنا أتنقّل بين بسطات الخضر والفواكه ودكاكين الأسماك واللحوم والدجاج والأرانب ومحلاّت بيع التمور والزيتون والأجبان. أتطلّع إلى السلع المعروضة. أشمّ الروائح. أستمع إلى نداءات الباعة وأصواتهم المتنافرة..

أتابع جولتي في شارع الحبيب بورقيبة. وعندما يشتدّ الحرّ أتوجّه إلى مقهى الأنترناسيونال. لم تتبقّ لي سوى أيّام قليلة من العطلة لذا قرّرت الجلوس فيه مرّة أخرى. والذي شجّعني على ذلك هو أنّ النادل الذي كان يطاردني لكي أساعده على تحقيق حلمه بالهجرة لم يكن هناك.

أفطن في التفاتة عابرة إلى أنّ الامرأتين حول الطاولة التي توجد في الزاوية المقابلة هما العاهرتان اللّتان جلست معهما في المرّة السابقة

اضطراراً بعدما نجح الشبّان الثلاثة في الاستيلاء على مكاني. لا ادري إن كانتا قد شاهدتاني لـمّا دخلتا المقهى، أو انتبهتا إلى وجودي فيما بعد؛ فقد كنت أجلس بعيداً عن المدخل كما أنّ الطاولات التي توجد بيننا كثيرة. تبدو لي إحداهما أجمل بكثير ممّا كانت في المرّة السابقة حتى أنّني ظننت في لحظة ما أنّها امرأة أخرى. ألاحظ أيضًا أنّ ثيابهما جميلة منسجمة الألوان، وأنّ ماكياجهما صارخ يلفت الانتباه. كانتا تدخّنان وتتطلّعان كالعادة حولهما. حين تلتقي نظراتي بنظرات إحداهما أبتسم لها. تستدير على الفور وتقول للأخرى كلامًا. تنظران إليّ وتمطّان شفاههما امتعاضاً. ثم تنفجران ضاحكتين. لم أنزعج بالطبع فانا لم أبتسم لهما لكي أراودهما كما خُيّل إليهما، وإنّما لأعرف إن كانتا قد تذكّرتاني.

أستدير وأقرّر ألاّ أنظر إليهما وأن أتجاهلهما تمامًا.

وبينما كنت أتابع حركة الداخلين إلى المقهى تقع عيناي على أخي إبراهيم فتصيبني الدهشة. لم يكن وحيداً. كان يرافقه صديقه المعلّم الذي لعب معه الورق بحضوري منذ بضعة أيّام. لم أكن أتصوّر أنّ إبراهيم يرتاد هذا النوع من المقاهي. ثم إنّني لم أكن أتوقّع أن أراه آنذاك في أيّ مكان آخر عدا الجامع. اليوم هو الجمعة والوقت وقت صلاة الجمعة. ومن المفروض أن يكون برفقة وائل في مسجد حيّ البساتين، فماذا يفعل في مثل هذه الساعة في مقهى مثل الأنترناسيونال؟!

وتتفاقم دهشتي حين أراهما يجلسان إلى طاولة قريبة من طاولة العاهرتين ويشرعان بعد لحظات في معاكستهما. إلاّ أنّ ما يذهلني حقًّا

هو أنّهما ينهضان فجأة وهما يحملان ما طلباه من مشروبات. ثم يتقدّمان من طاولة العاهرتين ويجلسان معهما غير عابئين بنظرات الذين كانوا يجلسون إلى الطاولات المجاورة. أدير لهما ظهري وأفكّر في أن أغادر المكان على الفور لكي لا يرياني فأسبّب لهما حرجًا كبيراً.

الأمر في حدّ ذاته ليس خطيراً، فأخي رجل مثل بقيّة الرجال. لقد مضت على زواجه أعوام كثيرة. ومن الطبيعي أن يملّ زوجته. أمّا تديّنه فهو ليس مشتطًّا ومتطرّفًا. وهو لم يمنعه على أيّ حال من الإقبال بين الفينة والأخرى على ملذّات الحياة كالخمر التي لم يتوقّف أبداً عن شربها. لكن أن يراود عاهرة على مرأى ومسمع الجميع فهذا ما لم يكن ليخطر ببالي على الإطلاق.

وفيما كنت أفكّر في الطريقة التي تمكّنني من مغادرة المقهى دون أن ألفت انتباههما، أتذكّر ما قاله لي أمس لـمّا عدت إلى البيت بعد مغامرتي مع ليلى. أستعيد كلّ الحوار الذي دار بيننا عندما أخبرني بأنّه شاهدني في سيّارتها. أتفحّص كلّ كلماته، محاولاً أن أبحث عن شيء لم أفطن إليه آنذاك. شيء يشير إلى أنّه اكتشف أنّ علاقتي بليلى ليست بريئة ممّا يكون قد شجّعه ولو بشكل غير مباشر على أن يخوض هو أيضًا مغامرة جنسيّة.

رحت أقنع نفسي بان لا شيء إلى حدّ الآن يدلّ على أنّ إبراهيم يودّ خوض مغامرة جنسيّة. صحيح أنّه يجلس مع عاهرتين. وهو سعيد بذلك على ما يبدو. لكن ربّما زميله هو الذي يريد مراودة إحداهما. أمّا إبراهيم فإنّه يرافقه بحكم أنّه صديقه. هذا كلّ ما في الأمر.. حتى الآن. وحين تتطوّر الأمور وتصبح جدّيّة فقد ينسحب ويتركه مع العاهرتين.

أستجمع كلّ قواي وأخرج من المقهى. ولكن بعد خطوات قليلة أقرّر أن أعود أدراجي لأعرف ما ستؤول إليه الأمور ولكي أتأكّد من أنّ أخي متورّط هو أيضاً في هذه المغامرة. أقف بالقرب من المقهى خلف عمود إعلانات وأبدأ في متابعة المشهد بانتباه شديد.

أشعر بقليل من الارتياح حين ينهض أخي وصديقه فجأة ويغادران المقهى وحيدين. لكنّ ارتياحي هذا لم يدم طويلاً، فبعد برهة تخرج العاهرتان. أخذ أخي وصديقه يتناقشان. أزداد اقترابًا منهما إلى حدّ أنّه صار بإمكاني سماع صوتيهما. غير أنّي لا أستطيع أن أتبيَّن أيّ كلمة ممّا يقولان بسبب ضجيج السيّارات. كان واضحًا أنّهما يتناقشان في أمر مهمّ وأنّهما غير متّفقين. يبدو لي من الطريقة التي يحرّكان بها أيديهما ورأسيهما أنّهما ليسا في حالة طبيعيّة، وأنّهما قد شربا بل يُخيَّل إليّ أنّهما ثملان. ولكن من أين أتيا بالخمر؟ إنّ بيعها ممنوع يوم الجمعة في كلّ الحانات إلاّ في بارات الفنادق الفخمة. وهي لا تُباع إلاّ للسيّاح من غير المسلمين والعرب.

يسيران في اتّجاه العاهرتين. وشيئًا فشيئًا يقتربان منهما لكنّهما يظلاّن محافظين على مسافة لكي لا ينفضح أمرهما. تنتقل العاهرتان إلى شارع قرطاج. وعندما تبلغان منتصفه تنعطفان إلى شارع صغير. تتوقّفان في نهايته وتنظران خلفهما. ثم تدلفان إلى إحدى العمارات. بعد دقائق يلتحق بهما أخي وصديقه.

لم يعد لديّ عندئذ أيّ شكّ في أنّ أخي وصديقه سيضاجعان العاهرتين. أردت أن أغادر المكان على الفور. إلاّ أنّي لم أستطع. أبقى مسمّرًا في مكاني أحدّق في العمارة. الغريب أنّ ما فعله أخي لم يعد

يثير دهشتي. أكثر من هذا ولّد في نفسي إحساسًا غريبًا يشبه الارتياح. كأنّ خيانته لزوجته مع عاهرة تخفّف عنّي العبء الذي يثقل كاهلي منذ مغامرتي مع ليلى.

العمارة قديمة من مخلّفات الاستعمار الفرنسي. بابها الخشبي الضخم المفتوح على مصراعيه لم يُدهن منذ وقت طويل. كان متآكلاً في الأسفل ومتشقّقًا في عدّة مواضع. وفي أغلب شرفاتها غسيل منشور وزراب معروضة للهواء والشمس، وأكياس وسطول ومكانس وعلب كرتونيّة وأمتعة أخرى. أمّا على السطح فهناك غابة من هوائيّات التلفزيون والصحون اللاقطة. كانت في حالة سيّئة مثل الكثير من هذا النوع من العمارات الأوروبيّة في غياب العناية بها بعد رحيل أصحابها الأصليّين.

أتذكّر، وأنا أنظر إليها، الأعوام البعيدة التي كنت أقيم فيها مع إبراهيم. كنّا نستأجر شقّة صغيرة بغرفة واحدة في عمارة قديمة من هذا النوع تقع في قلب حيّ لا يزال يحمل إلى حدّ الآن اسم السياسي الفرنسي «لافيات». ولأنّنا متقاربان في السنّ، فأنا أكبره بعام واحد فقط، كنّا لا نتصرّف كما يتصرّف الإخوة وإنّما كصديقين حميمين. لم يكن إبراهيم آنذاك متديّنًا ولم يكن يصلّي. كنّا نسكر معًا ونراود النساء معًا ونضاجعهنّ معًا. وأحيانًا نفعل ذلك في الوقت نفسه وعلى الفراش نفسه..

لم يكن هناك في الشارع سوى مطعم صغير يقابله محلّ لتصليح السيّارات، كُدّست في مدخله عجلات قديمة. النوافذ في أغلب العمارات مفتوحة. وكان ينبعث منها خليط من الأصوات والأغاني.

www.mlazna.com-RAYAHEEN

يخرج صاحب محلّ تصليح السيّارات. وينظر إليّ فأغادر المكان. أنتقل إلى شارع آخر يتقاطع مع الشارع الذي كنت فيه وأقف في مكان أستطيع أن أراقب منه مدخل العمارة.

بعد دقائق قليلة يخرج صديق أخي. ثم تلحق به إحدى العاهرتين. غير أنّ أخي والمومس الأخرى بقيا داخل العمارة.

لا يداخلني أدنى شكّ في سبب هذا التأخير. إبراهيم أعجب بالمومس فهي جميلة حقًّا وأراد أن يضاجعها مرّة ثانية وربّما ثالثة، غير عابئ بالمبلغ الذي سيدفعه لها. وفيما كنت أتخيّله وهو منكبّ على جسد المومس أتذكّر يسرى فأحسّ نحوها بقليل من الشفقة. منذ مدّة طويلة، وتحديدًا منذ أن أخذا يصلّيان، لم أشاهد أخي يحتضنها أو يداعب شعرها أو يديها أو حتى يلمسهما كما كان يفعل في السابق. ولا أدري إن كان لا يزال يفعل هذا حين يكونان وحيدين. ومع ذلك لا يخامرني أيّ شكّ في أنّه لا يزال يحبّها.

تمرّ سيّارة شرطة. لا أنتبه إليها إلاّ عندما تصبح على بعد أمتار قليلة منّي، فقد كنت مستغرقًا في مراقبة مدخل العمارة. كانت تسير ببطء شديد. ينظر إليّ أحد رجال الشرطة طويلاً فأتذكّر ما حدث لي مع الشرطة قبل بضعة أيّام.

أشعر بالطمأنينة لـمّا واصلت السيّارة طريقها وانعطفت إلى اليمين. لكن بعد وقت قصير أفاجأ بالسيّارة تدخل الشارع من جديد فأغادر المكان بسرعة. خشيت أن يكون رجال الشرطة قد لاحظوا أنّي أنظر إلى العمارات المقابلة فاستنتجوا أنّ شيئًا ما يحدث داخلها. خفت

إن بقيت في مكاني أن أورّط أخي في مشكلة خطيرة فالدعارة غير الشرعيّة ممنوعة، رغم أنّنا نرى مظاهرها في كلّ مكان. وباستطاعة الشرطة أن تقبض على كلّ من يمارسها لتقدّمه للمحاكمة بتهمة الزنى.

أعود إلى البيت في وقت متأخّر. كان إبراهيم متمدّدًا على الكنبة يشاهد التلفزيون وكان وائل يلعب على الزربيّة بالقرب منه. يتوقّف عن اللعب ويقول لي بلهجة من يبوح بسرّ مهمّ:

ـ اليوم ما صلّينا في الجامع..

أنظر إليه متظاهرًا بالاستغراب:

ـ لماذا؟

ـ بابا ما جاء..

ـ أبناء الكلب ما تركونا نخرج هذه المرّة للصلاة.. كان عندنا اجتماع مهمّ..

يقول إبراهيم. أهزّ رأسي. ثم أشيح عنه بوجهي. خشيت أن تعكس نظرتي شيئًا ممّا كان يجول في ذهني:

ـ لكنّهم أكّدوا لنا أنّ هذا لا يمكن أن يقع مرّة أخرى..

ينظر إلى وائل الذي كان كئيبًا بسبب ما حدث ويضيف:

ـ اطمئنّ.. الجمعة القادم.. سنصلّي في الجامع..

يتناهى إلينا صوت يسرى من المطبخ:

ـ اللّه يخرب بيوتهم.. الآن صاروا يحرمون الناس حتى من صلاة الجمعة.. اللّه يقصف أعمارهم..

بعد العشاء أنتهز فرصة انهماك يسرى وإبراهيم في مشاهدة فيلم مصري، فألجأ إلى غرفتي. وحالما أتمدَّد على الفراش تقفز إلى ذهني صورة إبراهيم وهو يجالس العاهرتين في مقهى الأنترناسيونال. أتذكّر مرض السيدا الذي لم يخطر ببالي على الإطلاق من قبل فتغزو الأسئلة عقلي. هل استعمل واقيًا أثناء المضاجعة؟ متى وأين اشتراه؟ وربّما ضاجع المومس بدون واق.. الكثير من الرجال هنا لا يستعملون الواقي لأنّه يفسد المتعة الجنسيّة كما يقولون. ثم إنّهم يعتقدون أنّ مرض السيدا لا يصيب إلاّ اللوطيّين المخنَّثين.

ـ ماذا فعلت اليوم؟

يسألني إبراهيم وهو يقف في مدخل الغرفة.

ـ تفسّحت.. كالعادة..

فكّرت أن يكون قد رآني هو أيضًا في مقهى الأنترناسيونال.

ـ أين؟

ـ في سوق الخضر والفواكه المركزي..

ـ سوق الخضر!؟..

ـ آ..

ـ وما الذي يعجبك فيه؟

ـ كلّ شيء.. الخضر.. الفواكه.. الناس..

ـ الخضر؟.. تتفرَّج على البطاطا واللفت والطماطم!..

أحرِّك رأسي. يضحك. ثم يتقدَّم من النافذة. ينحني قليلاً ويقول بصوت منخفض وهو يتراجع إلى الخلف:

ـ نعيمة في الشباك.

يتابع وهو يشير بيده:

ـ تعال..

حين أنحني مثله يهمس في أذني وهو يشير إلى تحت:

ـ انظر..

لم تكن نعيمة وحدها.. كانت برفقة الرجل الذي شاهدته قبل أيّام. كانا متلاصقين. وكانا ينظران في صمت إلى الأسفل.

أتذكَّر ما قالته لي ليلى عن الرجل فأقول بعد أن نترك النافذة:

ـ أخوها.. على ما يظهر..

ـ سمعت هذا الكلام.. هذه أوّل مرّة أشوفه معها في البيت.. المرّة المقبلة سأبلِّغ البوليس..

ـ البوليس؟..

ـ آ.. البوليس.. كلّ الناس في العمارة وفي الحيّ يعرفون أنّها مطلَّقة.. هي تقول إنّه أخوها.. يمكن يكون أخوها.. لكن لا بدّ أن نتأكّد.. نحن ما نريد أن تأتي بالرجال إلى بيتها.. ونساؤنا وبناتنا وأولادنا الصغار يتفرّجون على ذلك.. إذا أرادت أن تقابل الرجال فيلزمها أن تفعل هذا في أماكن أخرى وليس هنا..

لا أنبس بكلمة. وحين أتمدَّد من جديد على الفراش يقول:

ـ يظهر أنّك تعبان..

أحرّك رأسي. ثم أغمض عينيّ.

ـ أنا أيضاً تعبان..

وعندما يخرج أفتح عينيّ وأشرع في تأمُّل رسوم وائل المعلّقة على الجدار المقابل..

www.mlazna.com
^RAYAHEEN^

-١٧-

أصحو من النوم متأخّراً. تذكّرني أصوات إبراهيم ووائل القادمة من الصالون بأنّ اليوم هو الأحد. يوم الشجارات بين يسرى وإبراهيم. كنت على يقين من أنّ هذا الأحد سيكون مختلفاً، وأنّ إبراهيم سيتصرّف مع زوجته تصرُّفاً مغايراً هذه المرّة. سيكون لطيفاً ومسالماً وسيتجنّب مشاجرتها حتى وإن انتقدته أو عاتبته. سيناقشها بالطبع في كلّ صغيرة وكبيرة. سيخالفها الرأي بل وقد يسخر منها قليلاً. غير أنّه لن يخاصمها فمن المؤكّد أنّه لا يزال يشعر بتأنيب الضمير.

إنّه يعرف أنّه ارتكب خطأ حين خانها مع عاهرة. وهو نادم على ما فعل. لذلك سيسعى بكلّ الوسائل إلى التكفير عن ذنبه.

كان مزاجي متعكّراً، فأنا لم أستطع أن أتخلّص من وطأة الأحاسيس الموجعة التي انتابتني منذ اللحظة التي وقعت فيها عيناي على إبراهيم وهو يدخل مقهى الأنترناسيونال. أحياناً حالما يكلّمني أو

حتى ينظر إليّ تقفز إلى ذهني صورته وهو يتبع العاهرتين في الشارع. أمّا الارتياح الذي شعرت به حين صرت على يقين من أنّه سيخوض معهما مغامرة، ذلك الإحساس الغريب الذي خفّف عنّي العبء الذي كان يثقل كاهلي بسبب ما حدث لي مع ليلى فقد تلاشى بسرعة وحلّ محلّه شعور بالنفور من أخي. لا لأنّه خان يسرى وإنّما لأنّه فعل هذا مع عاهرة.

لا ألاحظ في نظرات إبراهيم أو حركاته ما يوحي بأنّه تفطّن إلى ما يعتمل في داخلي. ظلّ يسلك معي كالعادة بمحبّة وتقدير ممّا جعلني أشعر بمزيج من الألم والنقمة على نفسي. أمّا يسرى فقد انتبهت إلى أنّ شيئًا ما يشغل بالي. وقد عزت ذلك إلى قرب نهاية زيارتي والكآبة التي يشعر بها المرء حين يكون على وشك مغادرة بلده إلى بلد آخر.

كلّ شيء يوحي بأنّي ساقضي يومًا صعبًا. سيلتحق وائل في الصباح بأصدقائه للّعب معهم في حديقة العمارة كما يفعل كلّ يوم أحد. أمّا يسرى فستنهمك كالعادة في تدبير شؤون البيت. وبعد الغداء ستذهب إلى الحمّام العمومي برفقة وائل ولن تعود إلاّ عند هبوط الليل. ساكون وحدي في البيت في معظم الأوقات مع إبراهيم. أفكّر في الذهاب إلى مركز المدينة لقضاء اليوم أو جزء منه هناك. لكنّي أتخلّى عن هذه الفكرة فأنا أكره المدينة يوم الأحد وأجدها كئيبة. ثم إنّ يسرى وإبراهيم يحرصان على أن أقضي هذا اليوم كلّه معهما في البيت.

الحقيقة أنّ ما يزعجني ليس أن أكون إلى جانبه وإنّما أن أكون معه على انفراد ولوقت طويل. أعرف أنّه سيلازمني طوال اليوم لاعتقاده

أنّه لا يجوز أن يتركني وحدي اللهمّ إلاّ إذا دخلت غرفتي وأغلقت على نفسي الباب متظاهرًا بأنّي مستغرق في القيام بعمل مهمّ. ولكن هل ساقضي اليوم كلّه محبوسًا في الغرفة؟ وحتى إن فعلت هذا بين الفينة والأخرى فإنّ إبراهيم سيدرك أنّي أتهرّب منه وأتجنّب الجلوس معه ممّا سيثير حيرته وشكوكه.

أترك الفراش وأفتح النافذة. حركة السيّارات والحافلات خفيفة. بعض الأطفال استغلّوا ذلك فأخذوا يلعبون الكرة وسط الشارع، غير عابئين بانزعاج المارّة وملاحظات بعض سائقي السيّارات. والشبّان الثلاثة منتصبون أمام مدخل العمارات يراقبون كالعادة حركة الخارجين والداخلين. وأمام مركز الشرطة يقف شرطيّان منهمكان في الحديث. أحدهما يحرّك يديه باستمرار ويشير من حين إلى آخر إلى لوح الإعلانات الذي يحمل ملصق «ابتسم فأنت في تونس».

أخرج من الغرفة وأقصد المطبخ. وحالما أشرع في تناول الفطور يأتي إبراهيم من الصالون حيث كان يشاهد التلفزيون ويجلس قبالتي بجوار يسرى التي كانت تقطّع الخضروات. أتضايق من النظرات الطويلة المتفحّصة التي كان يصوّبها إليّ بين الحين والآخر، فأنا لا أحبّ من يراقبني أثناء الأكل خصوصًا في الصباح. يسأل يسرى عن الطبق الذي تعدّه لنا للغداء فتجيب باقتضاب، وبلهجة جافّة توحي بأنّ شجار الأحد التقليدي على وشك الاندلاع، وهذا ما يحدث بالفعل بعد بضع دقائق. تقوم يسرى دافعة الكرسي بعنف إلى الخلف للتعبير عن غضبها وتقول لإبراهيم دون أن تنظر إليه إنّه لم يحسن اختيار الخضر، ولولا انهماكها في تنظيف البيت لما كلّفته بهذه المهمّة ولفعلت ذلك

بنفسها. ثم تلعن بائعي الخضر الذين لا همّ لهم، أبناء الكلب، سوى غشّ عباد الله.

يردّ عليها أخي على الفور مؤكّدًا أنّ البائع الذي اشترى منه الخضر رجل متديّن وثقة يخاف ربّي ولا يمكنه أن يغشّ. وشيئًا فشيئًا يتشعّب الحديث. يتفاقم غضب يسرى فتنتقد إبراهيم. يظلّ أخي مسيطرًا على أعصابه. يتكلّم بهدوء من لا يريد توريط نفسه في شجار. تستغلّ يسرى وجودي في المطبخ وخصوصًا موقف أخي المهادن فتضاعف من حدّة انتقاداتها.

ومن حسن الحظّ تحدث في تلك اللحظات الحرجة مفاجأة تضع حدًّا لهذا الشجار، وتبدّد في الوقت ذاته كلّ ما كان ينتابني من مخاوف بسبب ذلك الأحد اللعين. فبينما كانت يسرى تشنّ حملتها على إبراهيم يُطرق باب الشقّة. يندفع إليه وائل ويفتحه فإذا بأخينا الأكبر البشير يدخل وهو يمسك بيد أحد أبنائه. ينهض إبراهيم على الفور ويستقبلهما بحفاوة بالغة.

أمّا يسرى فهي تتوقّف عن التهجّم على زوجها وترحّب بهما وهي تبتسم ابتسامة باهتة تدلّ على أنّ هذه الزيارة المباغتة قد ولّدت في نفسها شيئًا من الارتباك.

يقدّم لي البشير ابنه وليد قائلاً إنّه ألحّ عليه كثيرًا لكي يصطحبه ليرى عمّه الذي يعيش في فرنسا. كنت واثقًا من أنّي شاهدته من قبل. ولم أعد أذكر أين ومتى. كان يشبه أمّه وكان أطول من وائل بالرغم من أنّ كلّ ما فيه يدلّ على أنّه في عمره.

يمدّ لي يده الصغيرة لمصافحتي كالكبار. ثم يقف بجانبي صامتاً. كان على العكس من وائل خجولاً ومنطويًا على نفسه. وكان لا يجرؤ على رفع رأسه حين أتطلّع إليه.

يسلّم البشير يسرى كيسًا من البلاستيك به ثلاثة فراريج مذبوحة ومنتوفة الريش. وفيما كانت يسرى تودعها الثلاّجة يقول البشير بافتخار إنّها من مدجنته، وإنّه حرص على أن يختارها بنفسه ليكون متأكّدًا من أنّها ممتازة. يشكره إبراهيم على كرمه متمنّيًا له حجًّا مبرورًا. أمّا يسرى فتدعو له بالخير والبركة وطول العمر راجية من الله عزّ وجلّ أن يزيد من فضله.

لم أرتحْ كثيرًا للبشير أثناء زيارته الأخيرة. لكن هذه المرّة أبتهج بقدومه. وتتضاعف بهجتي عندما يدعوه إبراهيم للغداء وقضاء جزء من فترة ما بعد الظهر معنا فيوافق دون تردّد. لا يخبرنا بسبب قدومه إلى تونس في مثل ذلك اليوم. يكتفي بالإشارة إلى أنّه جاء لقضاء حاجة ملحّة. إلاّ أنّ ما يقوله فيما بعد يلفت انتباهي وهو أنّه عزم منذ أن كان في باجة على أن يزورنا لكي يودّعني وأيضًا ليتناقش معي قليلاً فقد أعجبه الحديث الذي دار بيننا في اللقاء الماضي، وهو يرغب في مواصلته رغم أنّه يعرف جيّدًا أنّ آراءنا متباينة في مثل هذه الأمور منذ أن انخرط في حزب «التجمّع» الحاكم، وخصوصًا منذ أن صار من أبرز أعضائه في باجة.

يأمر إبراهيم يسرى بأن ترجئ الذهاب إلى الحمّام إلى الأحد المقبل لتعتني بضيوفها فتقبل دون تردّد. لا أتفاجأ بذلك، فمنذ اللحظة التي تسلّمت فيها الفراريج تغيّرت رأسًا على عقب. نسيت على الفور

شجارها مع زوجها. أمّا الارتباك الذي ظهر عليها في البداية فقد تلاشى تماماً. وصارت الابتسامة لا تفارق شفتيها.

تسأل البشير مطولاً عن أخبار الأبناء الآخرين وخصوصاً عن أحوال عائشة. وتعاتبه بشدّة على أنّه لم يصطحبها لأنّها مشتاقة حقًّا إلى رؤيتها. تسأله أيضاً عن أخبار المرسيدس وعمّا يقوله الناس عنها. كما تسأله عن المدجنة وعن استعداداته للحجّ. وبين الفينة والأخرى تقبّل وليد بحرارة وتمتدح هدوءه ورصانته وحسن تربيته، حتى أن وائل أخذ يتطلّع إليه بعينين تعكسان شيئًا من الغيرة.

ولم ينتظر البشير طويلاً فقد استغلّ الترحيب الهائل الذي لم يكن يتوقّعه على ما يبدو، فشرع فور انتهاء يسرى من طرح أسئلتها في الحديث عن الحزب الذي ينتمي إليه مدافعاً عن مبادئه. وحين يلاحظ أنّي لا أتضايق ممّا كان يقول كما حدث في المرّة السابقة، يتمادى في ذلك ويشرح بحماس الأسباب التي جعلته ينزل من البرج العاجي الذي كان يعيش فيه مثل أغلب المثقّفين ليحتكّ بالواقع ويغوص في أوحاله.

وشيئًا فشيئًا يشتدّ حماسه وينتقل إلى ما يفضّله على ما يبدو في مثل هذا الحديث، وهو التهجّم على المعارضين الذين لا يكفّون عن الانتقاد والشتم والمزايدة، واصفاً إيّاهم بالكلاب المسعورة الضالّة، والتشهير بأولئك الذين يتشدّقون بأنّهم يعيشون في المنفى بالرغم من كلّ ما يتمتّعون به في أوروبا من امتيازات تقدّمها لهم بلدان غربية تتحدّث عن الديمقراطيّة وحقوق الإنسان، في حين أنّها هي أوّل من يدوس على هذه الحقوق عندما يتعلّق الأمر بالمهاجرين العرب والمسلمين الذين يعاملون كالحيوانات.

لا يتوقّف عن الكلام إلاّ عندما يتدخّل إبراهيم الذي كان يستمع إلينا بصمت كالعادة حين نخوض في مثل هذه المواضيع ليقول إنّ المهمّ في هذه الحياة الدنيا هو أن يكون الإنسان في صحّة جيّدة، وأن يقنع بنصيبه منها، وأن يؤمن بالله وباليوم الآخر لأنّ كلّ من عليها فانٍ إلاّ وجه ربّك ذو الجلال والإكرام.

بعد الغداء أنتهز فرصة استغراقهم في مشاهدة التلفزيون فأتسلّل خارجًا من الصالون، وأتوجّه إلى غرفتي. أشعر بشيء من الراحة وأنا أستلقي على الفراش. كلّ شيء على ما يرام، واليوم الذي كنت أخشاه يمضي في هدوء. أمّا تهجّمات البشير على الذين يخالفونه الرأي مثلي وعلى المعارضين والمنفيّين فهي لم تضايقني إطلاقًا فأنا أعرف جيّداً هذا الخطاب وقد استمعت إليه مراراً في التلفزيون والإذاعة.

أميل قليلاً برأسي وأشرع في تأمّل ما كان يظهر لي من السماء. لو كنّا في يوم آخر من الأسبوع لطلبت من البشير أن نذهب في سيّارته إلى قرطاج، أو سيدي بوسعيد لنتفرّج على البحر، ولنجلس فيما بعد في أحد المقاهي. من المؤكّد أنّ جولة كهذه ستُدخل كثيراً من البهجة إلى قلب يسرى. إنّها تقضي معظم اليوم في البيت. تطبخ وتغسل وتنظّف. وحتى إذا بقي لديها قليل من الوقت فإنّها تتفرّج على التلفزيون أو تخرج للتجوّل في حيّ البساتين، وحيدة أو برفقة وائل أو إحدى جاراتها. نادراً ما يرافقها إبراهيم فهو مثل أغلب الرجال يفضّل أن يخرج وحده لكي يلتحق بأصدقائه في المقهى.

بغتة يُفتح الباب ببطء ويطلّ وليد. تظلّ عيناه مثبّتتين عليّ للحظة طويلة. كان يريد أن يدخل لكنّه لا يجرؤ على ذلك. عندما

www.mlazna.com-RAYAHEEN

أبتسم له يتقدّم من السرير ويجلس على طرفه ضامًّا ركبتيه وشابكًا ذراعيه كتلميذ مطيع. ثمّة شيء ما في نظراته يوحي بأنّه يودّ أن يقول لي شيئًا ما يشغل باله على ما يبدو، لكنّ الخجل يمنعه من ذلك. أقترب منه وأداعب شعره لكي أساعده على تجاوز خجله. يحدّق في النافذة ليتحاشى نظراتي. وعندما أحتضنه يميل برأسه على كتفي ويسألني بصوت خافت عمّا إذا كانت زوجتي الفرنساويّة كافرة حقًّا كما يقول الجيران. تصيبني الدهشة. لم أكن أتوقّع على الإطلاق سؤالاً من هذا القبيل. لم أكن أتصوّر أيضًا أنّ أمرًا من هذا النوع يمكن أن يشغل بال طفل في عمره. لا بدّ أنّه سمع هذا الكلام عن كاترين عدّة مرّات. وقد يكون سمع عنها أسوأ من ذلك وتألّم كثيرًا بسببه، وإلاّ فلماذا ينشغل بها إلى هذا الحدّ؟

أقول له إنّ الإسلام ليس الدين الوحيد في هذه الدنيا وإنّ هناك ديانات أخرى كالمسيحيّة واليهوديّة، وهاتان الديانتان لا تختلفان كثيرًا عن الإسلام لأنّهما توحيديّتان مثله، وإنّ المسيحيّين واليهود يصلّون ويعبدون اللّه ويؤمنون بيوم القيامة وبالآخرة مثلنا.

أنتبه فجأة إلى أنّي أتحدّث إلى طفل لا يفقه شيئًا في مثل هذه الأمور، وأنّي أخاطبه بأسلوب لا يناسب عقله الصغير.

وحين ألاحظ أنّه يتطلّع إليّ بعينين حائرتين أقول له بلهجة واثقة إنّ كاترين ليست كافرة. يشعّ وجهه فرحًا ويقوم مبتسمًا كأنّ عبئًا ثقيلاً قد انزاح عن كتفيه. بعد برهة يقول لي إنّ أباه وعده بأن يشتري له من بلاد الحجّ مسبحة تضيء حبّاتها في الظلام، كتلك التي رآها لدى أحد أبناء الجيران.

أفطن في تلك اللحظة إلى أمر كنت قد نسيته تمامًا في غمرة ما يحدث، وهو أنّ العادة تقتضي أن أهدي وليد شيئًا ما. ليس كافيًا أن أقبّله وأحتضنه وألاعبه وأهتمّ به. لا بدّ أن أقدّم له هديّة، إذ لا يجوز أن يعود إلى باجة فارغ اليدين، خصوصًا أنّه ألحّ على أبيه على أن يصطحبه من أجل أن يراني. وإن لم أفعل فإنّ أبويه سيقولان عنّي في كلّ مكان إنّي بخيل. وعائشة قد تذهب إلى أبعد من ذلك وتتّهمني بما هو أخطر، وهو أنّي لا أحبّ ابنها مثلما أحبّ وائل. لكنّ المشكلة أنّه لم يكن لديّ ما أهديه إيّاه. وفيما كان وليد يتطلّع إلى الشارع أبدأ في دراسة الموضوع بحثًا عن حلّ. أفكّر أن أمنحه عددًا لا بأس به من الدنانير، فالنقود تُعدّ من الهدايا بل إنّ هناك من يفضّلها على الهدايا. لكنّني أتذكّر أنّ المبلغ الذي كان في حوزتي ليس كافيًا كهديّة.

وبعد وقت قصير تخطر لي فكرة أهمّ بكثير من الأولى وهي أن أستعيد السروال والقميص اللذين جلبتهما لوائل وأن أهديه إيّاهما. إنّهما كبيران على وائل ولن يلبسهما هذه السنة على أيّ حال. وفي الزيارة المقبلة سأجلب له ثيابًا أخرى. والذي استهواني حقًّا في الفكرة هو أنّي كنت متأكّدًا من أنّ الثياب تناسب وليد. لكن كيف أستعيد من طفل في عمر وائل ما أهديته إيّاه وأهديه لطفل آخر؟ من المؤكّد أنّه سيتألّم، خصوصًا أنّ علامات الغيرة قد صارت أكثر وضوحًا في تصرّفاته بسبب الاهتمام المتزايد بوليد. وحتى إن قبل، وهذا مستبعد جدًّا، فماذا سأقول ليسرى؟ لو كان الأمر يتوقّف على إبراهيم لربّما فعلت ذلك بعد أن أقنع وائل بالموافقة بالطبع. لكنّني كنت على يقين من أنّ يسرى ستغضب فهي لا تتسامح في أمور مثل الهدايا.

الحلّ الوحيد هو أن أقترض من إبراهيم ما ينقصني من المال. غير أنّي لست متأكّداً من أنّه يستطيع أن يمدّني بما أحتاج إليه، فمصاريفه كثيرة ورواتبه متواضع. ثم إنّي واثق من أنّه دفع للعاهرة التي ضاجعها قبل يومين، مرّتين على الأقلّ، مبلغًا مرتفعًا ولعلّه الآن في وضع صعب. وقد يكون في حاجة ماسّة إلى المال لكي يكمّل الشهر. لكن كبرياءه تمنعه كالعادة من أن يطلب منّي أن أساعده أو حتى أن يتحدّث عن ذلك أمامي.

أتذكّر فجأة أنّ لديّ قلم حبر جاف اشتريته في مطار أورلي لكي أهديه إلى كاترين التي تحبّ الأقلام الفاخرة، فأقرّر دون تردّد أن أهديه إيّاه. لم أبال بأنّ وليد لن يدرك، وهو في مثل هذا العمر، قيمة هديّة من هذا القبيل، فالمهمّ أن أهديه شيئًا ما لكي لا يعود إلى البيت فارغ اليدين. على أيّ حال كنت على يقين من أنّه لن يحتفظ به طويلاً. سيأخذه منه البشير. وقد يفعل ذلك حالما يغادران البيت.

حين أعود إلى الصالون يشكرني البشير على هذه الهديّة التي نالت إعجابه كما كنت أتوقّع. أمّا يسرى، فهي تحدجني بنظرة غريبة لا أدرك مغزاها إلاّ في الليل. بينما كنّا نتناول العشاء تلتفت إليّ فجأة وتبدي إعجابها الشديد بالقلم. وبعد برهة تقول إنّ وليد لا يستحقّ هديّة من هذا النوع لأنّ أباه قادرعلى أن يشتري له بفلوسه الكثيرة كل ما يحبّ ويشتهي، وإذا كان هناك من يستحقّ هذا القلم فهو وائل. لم أكن مقتنعاً بأنّ ابنها في حاجة حقًّا إلى هذا النوع من الأقلام. أستغرب أن تقول كلامًا كهذا بل، وأن تولي الأمر كلّ هذا الاهتمام. ومع ذلك أهزّ رأسي موافقًا.

-١٨-

حالما أفتح عينيّ أشرع في استعادة الحلم لكي لا أنساه. نعيمة واقفة في محطّة الحافلات. وأنا خلفها. لا أحد سوانا في المحطّة، فاليوم يوم جمعة. وكلّ سكان حيّ البساتين رجالاً ونساء وأطفالاً في المسجد. الشارع مقفر. لا حافلات ولا سيّارات ولا درّاجات. حتى مركز الشرطة كان مغلقًا. وبعيداً في الجزء الشعبي من الحيّ ثلاثة كلاب ضخمة تقعي في وسط الطريق. الحرّ شديد. والمكان غارق في صمت موحش.

كانت نعيمة ترتدي فستانًا شفّافًا ضيّقًا يكشف عن مفاتنها. شعرها المحلول المتهدّل على كتفيها يلتمع تحت ضوء الشمس الباهر. وكانت تنتعل الحذاء بالكعب العالي نفسه الذي كانت تنتعله لـمّا شاهدتها في السوبرماركت، وتضع على عينيها نظّارة سوداء داكنة.

فجأة استدارت إليّ وقالت لي، وهي تنزع نظّارتها، إنّ الحافلة لن تأتي لأنّ كلّ السائقين يصلّون في المسجد. انتبهت إلى أنّ عينيها

مكحّلتان فبدت لي آنذاك شبيهة جداً بممثّلة مصريّة نسيت اسمها. ولـمّا لاحظت أنّي أحدّق في مؤخّرتها البارزة ابتسمت كما لو أنّها تشجّعني على الاستمرار في ذلك. ثم اقتربت منّي واقترحت عليّ أن أرافقها إلى العمارة. لم أتردّد لحظة واحدة. بدا لي الأمر طبيعيًا جداً، فقد كنّا وحدنا.

كانت حديقة العمارات خالية إلاّ من قطط التجأت إلى ظلّ الأشجار للاحتماء من الحرّ. لـمّا وصلنا إلى شقّتها دعتني للدخول فوافقت على الفور. وما إن جلست على الكنبة حتى أخذت تتعرّى على طريقة راقصة الستربتيز. ولما تخلّصت من كلّ ثيابها تمدّدت بجواري على ظهرها فاتحة فخذيها وقالت لي إنّ الأوان قد حان لأتمتّع بما اشتهيته طويلاً.

خلعت ثيابي. وفي اللّحظة التي انحنيت عليها لأقبّلها، انتبهت إلى أنّ المرأة العارية التي تريد أن تهبني نفسها ليست نعيمة وإنّما يسرى زوجة أخي إبراهيم. ارتديت ثيابي على عجل. واندفعت راكضاً في اتّجاه الباب فيما كانت نعيمة تقهقه.

انتصب أمامي فجأة الرجل الذي شاهدته في شقّتها ليمنعني من الخروج. كان عاري الصدر وكان يمسك بهراوة غليظة.

دفعته بكلّ ما لديّ من قوّة وخرجت. ثم أطلقت ساقيّ للريح..

أرفع رأسي عن الوسادة وأجول بنظري في الغرفة كأنّي أراها للمرّة الأولى. بعد برهة أميل في اتّجاه الباب المغلق وأنصت. لا أسمع شيئًا كما لو أنّي لا أزال داخل الحلم. لا صوت ولا حركة في الشقّة.

إبراهيم في الشغل ووائل في المدرسة. ولكن أين يسرى؟ من المؤكّد أنّها خرجت لقضاء حاجة ما.

يغمرني ارتياح هائل لعدم وجودها في البيت في تلك اللحظات الحرجة. ولديّ قليل من الوقت لأتناول الفطور وحيداً في المطبخ. لم أكن أملك ما يكفي من الشجاعة لأتحدّث إليها، بل وحتى لأنظر إليها بعد كلّ ما رأيته في ذلك الحلم العجيب.

أتذكّر أنّي لم أر جسدها عاريًا في الحلم. كلّ ما رأيته منها لحسن الحظّ وجهها وشعرها. وربّما رأيت جزءاً صغيراً من صدرها لكنّي نسيت ذلك.

ألقي نظرة على الخارج كما لو أنّي أريد أن أتأكّد من أنّي قد خرجت تمامًا من ذلك الحلم. مركز الشرطة كان مفتوحًا كالمعتاد. وملصق «ابتسم فأنت في تونس» لا يزال على لوح الإعلانات. وفي الشارع سيّارات وحافلات ونساء وأطفال وقطط وكلاب سائبة.

وفي اللحظة التي أهمّ فيها بالتوجّه إلى الحمّام يتناهى إلى سمعي صوت. كان يأتي من إحدى شقق العمارة. أصغي بانتباه فأدرك أنّه صوت مقرئ يرتّل القرآن، وأنّ هذا المقرئ هو عبد الباسط عبد الصمد. وعندما أفتح النافذة أكتشف أنّ الترتيل يأتي من شقّة نعيمة عبر النافذة المفتوحة على مصراعيها.

عجيبة هذه الصدفة!.. قبل وقت قصير كانت نعيمة ترقص أمامي الستربتيز مثل عاهرة، قبل أن تعرض عليّ جسدها العاري بسخاء. وها هي الآن تستمع إلى القرآن!.. وعندما أنحني في اتّجاه

النافذة أشمّ رائحة بخور قادمة من شقّتها. هل عادت إلى طقوسها القديمة؟.. ولكن لماذا تفعل هذا الآن؟.. هل تريد أن تثبّت للجيران أنها لا تزال متديّنة.. وانّ تخلّيها عن الحجاب لا يعني شيئًا؟.. وربّما لاحظت أنّ الناس أخذوا يتضايقون من سلوكها خصوصًا منذ أن ظهر معها هذا الرجل الغريب الذي تقول إنّه أخوها فأرادت أن تثبّت لهم أنّها امرأة طاهرة شريفة تحرص على الاستماع إلى الذكر الحكيم، لكي يتوقّفوا عن مراقبتها..

رائحة البخور تزداد انتشارًا في الفضاء. أمدّ رأسي وأستنشق الهواء بعمق لأملأ رئتيّ بهذه الرائحة. ثم أنصت قليلاً فأنا أحبّ الاستماع إلى تلاوة القرآن خصوصًا بصوت عبد الباسط. وعندما أغلق النافذة يقفز إلى ذهني سؤال آخر.

لكن ماذا لو فعلت نعيمة هذا من أجلي.. نعم.. من أجلي لأهتمّ بها مجدّدًا؟.. لا شكّ أنّها لاحظت أنّي لم أعد أراقبها وأتلصّص عليها منذ أن شاهدت ذلك الرجل في نافذتها. ربّما استهوتها لعبة الإغواء التي كنّا نمارسها، وتتوق إلى أن ننخرط فيها من جديد. لكن سرعان ما تبدو لي الفكرة غريبة؛ فلو كانت نعيمة ترغب في استئناف لعبتنا لما بقيت داخل البيت ولظهرت لي عندما فتحت النافذة.

كنت قد انتهيت من تناول الفطور وعدت إلى غرفتي وشرعت في الاستعداد للخروج لـمّا رجعت يسرى إلى البيت. تسألني وهي تدلف إلى المطبخ:

ـ سمعت القرآن؟

ـ آ..

ـ تعرف من أين يأتي؟

ولا أدري لماذا أشعر برغبة في الكذب عليها فأقول بلامبالاة:

ـ لا..

ـ من بيت نعيمة.. يظهر أنّها رجعت إلى عادتها.. ويمكن تتحجّب مرّة ثانية..

ـ تتحجّب!

ـ آ.. ولكن لا أحد يصدّقها الآن.. كلّ الناس يعرفون أنّها قحبة.. وكذّابة..

كانت الحركة التي تتناهى إليّ من المطبخ توحي بأنّ يسرى قد شرعت في إعداد الغداء. إنّها الفرصة المناسبة للخروج.

ولا بدّ أن أستغلّها فورًا. عليّ أن أمرّ بباب المطبخ المفتوح بأقصى ما يمكن من السرعة والحذر، لكي لا أعرض نفسي لنظراتها التي كنت حريصًا على تجنّبها بعد كلّ ما رأيته في الحلم.

أنتعل حذائي على عجل. وفيما كنت أتثبّت من أنّ بطاقة التعريف لا تزال في جيبي، وهو ما أفعله في كلّ مرّة أغادر فيها البيت حتى للقيام بجولة قصيرة في حيّ البساتين، أفاجأ بيسرى تنتصب واقفة أمام باب الغرفة. تقول وهي تثبّت بصرها على وجهي:

ـ يمكن وجدت رجلاً متديّنًا.. وتحبّ أن تبيّن أنّها ما زالت متديّنة.. حتى يتزوّجها..

www.mlazna.com-RAYAHEEN

تتقدَّم من النافذة وتفتحها وتنظر قليلاً إلى الأسفل:

ـ تعرف.. كثير من الفاسدات يصرن متديِّنات لـمَّا يردن الزواج..

ابتسم محاولاً أن أخفي الاضطراب الذي أحدثه في نفسي ظهورها المفاجئ.

ـ إبراهيم غاضب عليها.. لا يريدها أن تدخل رجالاً إلى دارها.. قال إنَّه تحدَّث في الموضوع مع أصحابه.. وإنَّهم اتَّفقوا على أن يبلِّغوا عنها البوليس إذا شافوا رجلاً مرَّة أخرى في دارها..

حين تعود يسرى إلى المطبخ أجلس على طرف السرير. أتذكَّر ما قاله لي إبراهيم قبل ثلاثة أيَّام. لم آخذ كلامه على محمل الجدّ عندما أخبرني بأنَّه قرَّر إبلاغ الشرطة. لا أدري لماذا تهيَّأ لي آنذاك أنَّه كان في حاجة إلى أن يقول كلامًا من هذا النوع ليثبِّت لنفسه، بعد ساعات قليلة من مغامرته مع العاهرة، أنَّه لا يزال حريصًا على الأخلاق، وليحاول أيضًا أن يكفِّر عن ذنبه. إلاَّ أنَّ إخبار يسرى بقراره يدلّ على أنَّه جادّ حقًّا في كلامه.

لم أكن أتصوَّر أنَّ الأمر وصل إلى هذا الحدّ. إذا أتت الشرطة إلى بيت نعيمة ووجدوا الرجل هناك وتبيَّن أنَّه ليس أخاها كما تقول، فإنَّ المسكينة ستدفع الثمن غاليًا. ستمثُل بالتأكيد أمام القضاء بتهمة الزنى. وسيُزجّ بها في السجن وستتحوَّل حياتها إلى جحيم.

وللمرَّة الأولى أشفق عليها. صحيح أنِّي لا أحبّ سلوكها المزدوج وأنِّي أعتقد أنَّها لعبت بعقل يسرى في الفترة التي كانت تمارس فيها

تأثيرًا قويًّا عليها، وأنَّها هي أوَّل من دفعها إلى التديُّن... صحيح أيضًا أنِّي انزعجت منها حين رأيت للمرَّة الأولى الرجل في بيتها، غير أنِّي لست مقتنعًا بأنَّ تصرُّفاتها خطيرة على الآخرين. أفهم أن يستاء منها الرجال وأن يخافوا قليلاً على نسائهم.. لكن أن يصل بهم الأمر إلى حدّ استدعاء الشرطة لأنَّها تستقبل رجلاً في بيتها بين الفينة والأخرى فهذا ما كان ليخطر ببالي على الإطلاق.

من الغريب أن أنشغل قبل عودتي إلى فرنسا بيومين فقط بموضوع حسَّاس كهذا لا يعنيني. لكن كلَّما فكَّرت في الأمر ازددت اقتناعًا بأنَّ عليَّ أن أحاول فعل شيء ما، خصوصًا أنَّ إحساسًا خفيفًا بالذنب بدأ يتسلَّل إليَّ، فأنا الذي أقنعت يسرى بأنَّ نعيمة امرأة فاسدة وبأنَّ تديُّنها ليس سوى قناع تخفي به حقيقتها. وقد تكفَّلت يسرى بنشر الخبر وتشويه سمعتها بعد أن تأكَّدت بنفسها من ذلك.

ولكن ماذا باستطاعتي أن أفعل؟.. هل أخبرها بما يدبِّرون لها سرًّا؟.. ولكن هل ستصدِّقني؟.. قد تعتبر هذا محاولة للتقرُّب منها والتودُّد إليها.. بل وقد تذهب بعيدًا فتُشيع في الحيّ أنِّي أسعى بكلّ الوسائل إلى مراودتها. بإمكاني أن أستعين بيسرى. ربَّما تفلح في إقناع إبراهيم بخطورة ما يعتزم القيام به. قد تدفعه إلى التخلِّي عن قراره القاسي والاكتفاء بتوجيه إنذار حازم وواضح إلى نعيمة لكي تغيِّر على الفور سلوكها وتكفّ عن استقبال الرجل في بيتها. غير أنِّي أخشى أن تكتشف يسرى أنَّ شيئًا ما يربطني بنعيمة، وأنِّي أهتمّ بها أكثر من اللازم. والأخطر من ذلك قد تكتشف أنِّي معجب بها.

سيخيب ظنّها فيّ بالطبع. وستخبر أخي بالأمر إذ إنّ سرًّا من هذا النوع يصعب كتمانه. سيصاب إبراهيم بالتأكيد بصدمة حين يعلم أنّ أخاه الأستاذ المقيم في باريس والمتزوّج من امرأة فرنساويّة محترمة، والذي يعتزّ به ويفتخر به أمام جيرانه وأصدقائه ومعارفه، معجب بمطلّقة قحبة، والانكى من ذلك غير جميلة!.. ولو كانت في جمال القحبة التي ضاجعها هو قبل يومين لربّما هان الأمر ولكانت الصدمة أخفّ وقعًا عليه.

الشخص الوحيد الذي يمكنني أن أخوض معه في هذا الموضوع دون حرج هو ليلى. لكن من سيستمع إليها خصوصًا في مسألة من هذا القبيل؟ هي أيضًا سُمعتها غير جيّدة في الحيّ، بل وثمّة من يعتبرها امرأة فاسدة بسبب تحرُّرها. هناك زوجها المعلّم أيضًا. من الممكن أن يعوّل عليه لو تعلّق الأمر بموضوع من نوع آخر. لكن في حكاية كهذه لها علاقة بالأدب والحياء والأخلاق فليس بمقدوره أن يقنع أحدًا، فالجميع في الحيّ يعرف أنّه من أكثر الرجال تفتّحًا وتحمّسًا لفكرة تحرُّر المرأة.

وفيما كنت أبحلق في الفراغ ساهمًا تخطر ببالي فكرة أخرى. لماذا لا أخبر الرجل ذاته؟ لماذا لا أقول له إنّ ظهوره مرّة أخرى في بيت نعيمة سيعرّضها للخطر؟ وبالرُّغم من أنّي لم أر وجهه سوى مرّة واحدة في الليل ولبضع ثوان، فإنّني لا أزال أتذكّره. وأنا على يقين من أنّي سأتعرّف عليه حالما أراه. إن كان الرجل فعلاً أخاها فمن المؤكّد أنّه سينزعج حين أحدّثه عن أخته. سيتذكّر اللحظة التي ضبطني فيها وأنا أتلصّص عليها من النافذة فيعاملني بفظاظة وقد يشتمني. ولكن لا يهمّ.

المهمّ أن أجنّب نعيمة الوقوع في الفخّ الذي نُصب لها. ولكن أين سألتقيه؟ لا أعرف أين يقيم ولا أين يعمل إن كان يعمل أصلاً. ولا أحد ممّن أعرفهم على علم بذلك.

بعد تفكير طويل يتبيّن لي أنّ الحلّ الوحيد هو إخبار الطفل الذي شاهدته معها. لقد فكّرت في لحظة ما في اللجوء إلى العجوز التي تقول يسرى إنّها تقيم معها. لكنّ المشكلة أنّني لم أرها أبدًا لا في النافذة ولا في الخارج، حتى أنّي بدأت أتساءل عمّا إذا كانت موجودة أصلاً.

صحيح أنّ الطفل ضبطني ذات مرّة واقفًا أمام باب شقّة نعيمة الموارب، وقد سمعته يقول لها حين التقيتهما بالصدفة في ممرّ حديقة العمارات إنّي الرجل الذي شاهده يتلصّص على البيت، لكنّه يظلّ بحكم صغر سنّه الشخص الوحيد الذي يمكنني أن ألتجئ إليه لإبلاغها بالخطر الذي يتهدّدها، دون أيّ إحساس بالحرج، وخصوصًا دون أن أفضح نفسي أو أعرّضها لأيّ مشكلة.

أغادر البيت. وفي الطابق الثالث أقترب بحذر من شقّة نعيمة. ثم أتوقّف وأنصت. لا حركة في الداخل ولا صوت سوى صوت عبد الباسط. كانت الآية التي يتلوها من سورة «النساء».. «فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع فإن خفتم ألاّ تعدلوا فواحدة أو ما ملكت أيمانكم..». أبقى متجمّدًا أمام الباب كما لو أنّ صوت عبد الباسط قد خدّرني وشلّ جسدي. ولا أبرح المكان إلاّ حين يُفتح باب في الطابق الرابع وأسمع وقع خطوات على الدرج. أتمشّى حتى المجمّع التجاري. ثم أعود أدراجي فقد قرّرت أن أرجع إلى شقّة نعيمة وأنتظر قليلاً أمام بابها آملاً أن يحالفني الحظّ هذه المرّة فألتقي الطفل.

ليس هناك أيّ امرأة في نوافذ الشقق تراقب حركة الداخلين والخارجين. والممرّ الذي يشقّ حديقة العمارات خال تمامًا. أعبره بسرعة ثم أدلف إلى العمارة وأتسلّق الدرج. وعندما أبلغ الطابق الثاني تقع عيناي على مشهد لم أكن أتوقّعه على الإطلاق . عجوز قصيرة القامة تقف وسط بسطة الدرج، وبين قدميها قفّة كبيرة مليئة بالخضر والفواكه. كانت تلهث من شدّة التعب. العرق يسيل على وجهها وعنقها. والمنديل الذي على رأسها انحسر إلى الخلف كاشفًا عن جزء كبير من شعرها الذي وخطه الشيب. أما سفساريها فقد انزلق كثيراً عن كتفيها حتى أنّ أطرافه تكاد تلامس الأرض.

لا يخامرني أدنى شكّ في أنّها العجوز التي تقيم مع نعيمة. ها هي أخيراً أمامك.. أقول في نفسي وأنا أحاول أن أداري الاضطراب الذى اعتراني. حين أصبح على بعد خطوة منها تطلب منّي أن أساعدها على حمل قفّتها. تبتسم ابتسامة خفيفة وهي تراني أنحني على القفّة. وحين نستأنف تسلّق الدرج يخطر لي أن أقول لها ما كنت أودّ أن أقوله للطفل. إنّها فرصة رائعة لإبلاغ نعيمة بما يدبّره لها جيرانها، وعليّ أن أستغلّها دون تردُّد، خصوصاً أنّ العجوز تبدو لطيفة وطيّبة.

أجد الفكرة رائعة. غير أنّي أصمّم على أن أفعل ذلك في آخر لحظة عندما نصل إلى الشقّة وأسلّمها القفّة. هكذا يكون باستطاعتي أن أتركها وأنصرف على الفور في حال ما إذا لم يعجبها كلامي.

ومن حسن الحظّ أنّي تصرّفت على هذا النحو، فعندما نبلغ الطابق الثالث لا تتوجّه إلى شقّة نعيمة وإنّما إلى الشقّة المقابلة لها. تفتح الباب بمفتاح أخرجته من بين نهديها. ثم تتناول القفّة من يدي.

وبعد أن تدعو لي بالخير تدخل الشقّة. أبقى مسمّرًا في مكاني إلى أن أستعيد هدوئي . أتقدّم ببطء من شقّة نعيمة وأميل برأسي مصغيًا. بغتة أحسّ بحركة في الداخل يعقبها صوت كأنّه حفيف ثياب. أكتشف أنّ بالباب ثقبًا صغيراً وأنّ عينًا تراقبني من خلاله فأقرّر أن أنصرف خوفًا من أن أجد نفسي وجهًا لوجه مع نعيمة، أو الرجل الذي يزورها. وحالما أستدير يتناهى إليّ صرير خفيف. ثم يُفتح الباب قليلاً.

تسري قشعريرة في جسدي. ينقطع ترتيل القرآن فجأة ويغرق المكان في صمت مريب. وبدافع فضوليّ قويّ أمدّ رأسي فتقع عيناي على الطفل خلف الباب. يغمرني ابتهاج عميق فأبتسم له، إلاّ أنّه لا يردّ على ابتسامتي. كان شعره الممشوط بعناية مبلّلاً وكانت تفوح منه رائحة صابون توحي بأنّه خرج لتوّه من الحمّام. أبتسم له ثانية وأزداد اقترابًا من الباب. وعندما أميل عليه لأقول له ما كنت أودّ قوله يتراجع إلى الوراء وهو يتفرّس فيّ بعينين حائرتين. ثم يغلق الباب بعنف.

-١٩-

تمثال ابن خلدون الذي ينتصب في ساحة الاستقلال بالقرب من كاتدرائيّة تونس يبدو أكثر ارتفاعاً وضخامة ومهابة في مثل ذلك الصباح الباكر. للمرّة الأولى أثناء هذه الزيارة أقترب منه إلى هذا الحدّ. حركة السيّارات لا تزال خفيفة، والعابرون على الأرصفة المجاورة قليلون. وفي بعض الأشجار القريبة عصافير لا تتوقّف عن الزقزقة كأنّها تستفيد قدر الإمكان من تلك اللحظات النادرة من الهدوء .

أستند إلى السياج الحديدي الواطئ الذي يحيط بقاعدة التمثال. لا أحد في المكان سوى مصوّر، وشرطي استغربت وجوده في مثل ذلك المكان المقفر، لكن استنتجت في ما بعد من طريقته في التطلّع إلى أنّه يحرس التمثال فالشرطة هنا تحرس وتراقب كلّ شيء على ما يبدو..

يهرع إليّ المصوّر ليلتقط لي صورة أمام التمثال. أرفض وأدير له ظهري. وعندما يلحّ عليّ أبتعد عنه دون أن أنبس بكلمة. يتمتم

www.mlazna.com-RAYAHEEN

بشتائم آلمتني لكنّي أتمالك نفسي ولا أردّ عليها. أتأمّل التمثال من عدّة جوانب للحظات طويلة. ثم أتوجّه إلى الكاتدرائيّة.

تبدو بهندستها المعماريّة المتميّزة شيئًا غريبًا، بل نشازًا وسط البنايات البيضاء التي تحيط بها. لقد مررت أمامها عشرات بل مئات المرّات منذ أن وطئت قدماي لأوّل مرّة مدينة تونس. إلاّ أنّي لم أدخل إليها أبداً. ولم أسمع أنّ أحداً ممن أعرف فعل ذلك. إنّها تقوم شامخة في قلب المدينة منذ أعوام كثيرة. لكن لا أحد يوليها اهتماماً أو يلتفت إليها، أو ربّما حتى يراها. كأنّها غير موجودة. أو كأنّها من فصيلة هذه الموجودات العجيبة الخفيّة التي لا تراها العين.

أتسلّق الدرج الأمامي للكاتدرائيّة. وحين أبلغ أعلاه ألتفت إلى الخلف، فأكتشف أنّ المصوّر والشرطي يراقبانني. بعد تردُّد أدفع الباب وأدخل. في العادة لا يخامرني أيّ إحساس بالانزعاج حين أدخل الكنائس في باريس أو غيرها من مدن أوروبا، وهو ما أفعله باستمرار، فأنا أحبّ الكنائس والمساجد والمعابد وأماكن العبادة بكلّ أنواعها. لكن في تلك المرّة ينتابني شعور بالضيق ممزوج بندم خفيف كأنّي أرتكب إثمًا صغيراً.

الكاتدرائيّة خالية تماماً. كانت معتمة، وكان الفضاء يعبق برائحة لم أستطع أن أحدِّدها. أتقدّم ببطء في الممرّ الذي يفصل بين صفوف المقاعد وأنا أتأمّل السقف والرسوم والزخارف واللوحات على الجدران. وعندما أصبح أمام المذبح أتوقّف.

وفيما كنت أتأمّل الشمعدانات الضخمة أفاجأ بقسّ يقف بجواري. يبتسم لي ابتسامة واسعة ويسألني إن كنت أحتاج إلى مساعدة. أجيبه بالنفي فيبتسم لي من جديد وينصرف.

حين أخرج من الكنيسة ألاحظ أنّ المصوّر اقترب قدر الإمكان من الدرج. ولم يكن وحيداً. كان برفقته مصوّران آخران. يقول مخاطبًا زميليه بصوت مرتفع:

ـ ابن قحبة.. وكافر أيضاً..

يسأل أحد المصوّرين:

ـ وماذا كان يفعل ابن الكلب في الكنيسة؟

يجيبه الآخر:

ـ يصلّي مع الكفّار..

يقول الذي شتمني منذ حين:

ـ ويمكن يبحث على من ينيكه في هذا الصباح.. شكله شكل نياك..

ينفجرون ضاحكين. أتظاهر بأنّي لم أسمع شيئًا وأتابع السير صوب الجزء القديم من المدينة. أعبر نهج جامع الزيتونة.

كلّ المحلات التجاريّة كانت مفتوحة، لكنّه كان هادئًا فموعد تدفُّق حشود السيّاح لم يحن بعد. ثم أسير على غير هدى في الأزقّة المجاورة، مستسلمًا لمتعة الانتقال من مكان إلى آخر داخل تلك المتاهة الصغيرة حتى تقودني قدماي إلى مقهى سوق الشواشين.

حالما أجلس يهرع إليّ النادل ويصافحني بحرارة بدّدت كل الأحاسيس الموجعة التي ولّدتها فيّ شتائم المصوّرين وتهكّماتهم. وبعد أن يأتيني بالشاي يبقى واقفًا بجواري. أدرك من نظراته أنّه يودّ التحدُّث إليّ في أمر ما.

ـ باريس أكبر بكثير من تونس؟

ـ آ..

ـ أكبر كم؟..

ـ لا أدري..

ـ ثلاث مرّات؟

ـ يمكن..

يسكت قليلاً ثم يقول كأنّه يعتذر عن خطأ ما:

ـ أنا لا أعرف إلاّ طرابلس.. البلاد الوحيدة التي زرتها هي ليبيا..

أحرِّك رأسي مبديًا اهتمامًا بما كان يقول، فيجلس قبالتي ويسألني عن فرنسا. لم يسبق أن طرح عليّ شخص أسئلة بسيطة لكن دقيقة ولا غاية لها سوى المعرفة مثلما فعل هذا النادل البسيط في ذلك المقهى الشعبي الصغير. أغلب الذين يتحدّثون معي عن فرنسا يفعلون ذلك ليبيّنوا لي أنّهم يعرفونها هم أيضًا حتى وإن لم يزوروها أبدًا. بل ويحدث في بعض المرّات أن يقول لي أحدهم إنّه يعرفها أكثر منّي، ويسدي لي بالمناسبة قليلاً من النصائح لتجنُّب ما يمكن أن أواجه فيها من مشاكل!..

يناديه أحد الزبائن فينهض على الفور.

ـ نسيت أن أقول لك إنّ صديقك سي نجيب سيأتي.. بعد ساعة سيكون هنا..

لا أرتاح كثيرًا للخبر فقد كنت أرغب في أن أقضي آخر جلسة لي في المقهى وحيدًا. وما يفاقم إزعاجي أنّي صرت ملزمًا بانتظاره. لم يعد باستطاعتي آنذاك أن أغادر المكان على الفور، وهو ما عنّ لي للوهلة الأولى فلو فعلت ذلك فإنّ نجيب سيتألّم؛ إذ إنّ النادل سيخبره حتمًا بأنّي كنت في المقهى وبأنّي كنت على علم بقدومه.

حين يراني نجيب يشعّ وجهه ابتهاجًا جعلني أعاتب نفسي على عدم التحمُّس للقائه. ويحتضنني بحرارته المعهودة.

حالما يجلس ألاحظ أنّه منفعل ومتوتّر، وأنّ شيئًا ما يشغل باله. ولم أخطئ في ذلك، فبعد وقت قصير أخذ يشتم زوجته واليوم المشؤوم الذي التقاها فيه. وعندما يفرغ من ذلك يشرع في لعن المرأة التونسيّة التي لا همّ لها سوى تنكيد حياة زوجها بكلّ ما لديها من وسائل لتثبت أنّها متطوّرة وأكثر تحرُّرًا وتقدُّمًا من كلّ النساء العربيّات، وأنّها فخر تونس كما يردّدون في التلفزيون والإذاعة.

يشرب ما تبقّى من كأس الشاي دفعة واحدة. ثم يميل عليّ فأشمّ رائحة تشبه رائحة سمك مشوي تنبعث من فمه.

ـ بالنسبة للزائر مثلك، تونس تبدو بلادًا متطوّرة.. كلّ شيء فيها هادئ.. شعب مسالم.. مجتمع متفتّح.. ونساء في المقاهي..

لكنّ هذه الصورة خادعة.. تونس جحيم لمن يعيش فيها.. المجتمع التونسي مجتمع مهزوز.. مرتبك.. ضائع.. لا يعرف في أيّ اتّجاه يسير..

كنت قد تعوّدت خلال جلساتنا السابقة على آرائه هذه، لكنّي أُفاجأ في هذه المرّة بالحدّة والمرارة اللتين عبّر بهما عنها. يسكت وينظر

إلى رجل وامرأة كانا يجلسان قبالتنا، كأنّه يريد أن يعرف ما إذا كانا قد استمعا إلى ما كان يقوله. أدرك وأنا أنظر بدوري إليهما أنّي رأيتهما في أوّل جلسة لي في المقهى. أتذكّر أنّ المرأة كانت تدخّن بمتعة واضحة، وأنّ الرجل الذي يبدو أصغر منها كان لا يتوقّف عن الكلام. وبالرّغم من أنّها كانت ترتدي ثيابًا محتشمة وبانّ لا شيء في حركاتها يلفت النظر يخامرني إحساس عابر بأنّها مومس.

ـ متى ستعود؟

ـ غدًا..

ـ هنيئًا لك.. وهنيئًا لكلّ من يخرج من هذه البلاد..

وبينما كنت أفكّر في ما يمكن أن أقول له لاخفّف عنه يسالني بغتة:

ـ هل يمكن أن تعثر لي على عمل في فرنسا؟..

ـ وماذا تريد أن تعمل في فرنسا؟

ـ أيّ عمل.. بوّاب.. حارس.. عامل نظافة.. بائع جرائد.. صدّقني.. لو وجدت عملاً وحصلت على فيزا لغادرت هذه البلاد..

لم يسبق أن رأيته يائسًا ومحبطًا إلى هذا الحدّ. هل تخاصم مع زوجته خصومة عنيفة؟ وربّما حدثت له مشاكل كبيرة في المعهد الذي يدرّس فيه. ولعلّه أيضًا يعاني من ضائقة ماليّة شديدة.

ـ لو كنت أصغر.. لحاولت أن أهاجر بلا عقد عمل.. وبلا فيزا حتى..

يثبّت عليّ بصره كأنّه ينتظر تعليقًا. ثم يواصل بلهجة مؤكّدة:

ـ آ.. بدون فيزا..

ـ كيف بلا فيزا؟..

ـ سمعت بالذين يقطعون البحر إلى إيطاليا بالقوارب؟.. أفعل مثلهم.. أجرّب حظّي.. إنّهم يتحدّثون عنهم لـمّا تغرق قواربهم.. ويموتون.. ولكن هل تعرف أنّ الكثير منهم لا يموت.. ويصل إلى إيطاليا.. يبقى هناك.. أو يذهب إلى أيّ بلاد يريد.. فرنسا أو ألمانيا أو بلجيكيا.. الامور هناك أسهل.. كلّ الناس يقولون هذا.. البوليس هناك لا يوقفك في كلّ دقيقة كما هنا ويطلب أوراقك ليتثبّت من هويّتك..

كان الوقت عصرًا لـمّا ودّعت نجيب، فقد أصرّ على أن يبقى معي أطول وقت ممكن في آخر يوم لي في تونس. أنا أيضًا لم أشأ أن أتركه وهو في مثل تلك الحالة. تجوّلنا طويلاً في الأسواق. وحين استعاد شيئًا من هدوئه اقترح عليّ أن أرافقه إلى الماخور، فقد أحسّ فجأة برغبة جارفة في مضاجعة المومس الجميلة التي قادني إليها في المرّة الماضية. وافقت على الفور وأصررت على أن أدفع المبلغ الذي طلبته. وقد كنت سعيدًا حقًّا لـمّا رأيته يخرج من غرفتها وقد نسي كلّ همومه.

أعرّج في طريقي إلى ساحة برشلونة حيث محطّة الحافلات على سوق الخضر والفواكه. وبينما كنت أتجوّل في جناح محلاّت بيع التمور والزيتون والفول والحمّص، أتذكّر ليلى فاقرّر أن أمرّ بالقرب من المؤسّسة التي تعمل فيها، وأنتظر خروجها لكي أراها من بعيد قبل سفري. لقد

www.mlazna.com-RAYAHEEN

ظلّت تلك المغامرة الجميلة التي عشتها معها ماثلة في ذهني. بعدها لم ألتق بها أبداً.

والحقيقة أنّي لم أسع إلى ذلك سوى مرّة واحدة. ذات يوم بينما كنت أتمشّى في الحيّ شاهدتها. كانت تقف على بعد مسافة قصيرة من مدخل العمارة التي تقيم فيها. وكانت تنظر إلى بداية الشارع كأنّها تنتظر أحداً ما. كانت ترتدي ثياباً ضيّقة وقصيرة. وكانت تحمل كيساً. لم يبد عليها أيّ شيء لـمّا وقعت عيناها عليّ. لكن لمّا أخذت أسير صوبها أدارت لي بغتة ظهرها بحركة سريعة توحي بأنّ اقترابي منها يوقعها في الحرج. لم أشأ أن أزيد في إرباكها فعدت أدراجي. لا أدري لماذا تصرّفت على هذا النحو. وحتى لو كان زوجها آنذاك في البيت فقد كنت واثقاً من أنّه لن ينفعل أو يغضب، أو يخامره أدنى شكّ في سلوكي لو رآني معها، فأيّ غرابة في أن تتحدّث زوجته في أحد شوارع الحيّ في وضح النهار، وعلى مرأى ومسمع الجميع، مع أخ لعديله إبراهيم؟

أبقى في سوق الخضر والفواكه إلى أن يقترب موعد خروج الموظّفين من مكاتبهم. وعندما أصبح على مسافة قصيرة من مبنى المؤسّسة التي تشتغل فيها ليلى أتوقّف وأختفي وراء جذع شجرة، وأبدأ في مراقبة الحركة عند المدخل. كنت أتوقّع أن أرى زوجها ينتظرها أمام المدخل ليعود معها في السيّارة إلى البيت. لكنّي أفاجأ بأنّه لم يكن هناك. أقرّر ألاّ أقترب منها فقد كنت أنتظر أن يظهر زوجها بين لحظة وأخرى، وقد يلتحق بها حين تصل إلى المكان الذي أوقفت فيه السيّارة.

كنّا في بداية الأسبوع وليس هناك مبدئيًّا أيّ داع لكي لا يكون هناك.

تغمرني البهجة حين تصل إلى حيث توجد سيّارتها، ولم يظهر زوجها. أيّة مفاجأة سارّة هذه! إنّها فرصة رائعة لا للاقتراب منها قدر الإمكان فقط بل وللتحدُّث إليها بهدوء، وربّما أيضاً للعودة معها إلى حيّ الياسمين. ومن يدري لعلّها وحيدة في البيت هذه الأيّام. لعلّ زوجها سافر من جديد إلى مدنين. في هذه الحالة قد تدعوني إلى شقّتها. وإن حدث هذا فسأضاجعها على الأرجح.

كنت على يقين من أنّ المضاجعة ستكون هذه المرّة أفضل بكثير من المضاجعة السابقة التي لم تدم سوى بضع دقائق. سوف لا نضيع الوقت كما في المرّة الماضية في الكلام واللفّ والدوران. حالما ندلف إلى الشقّة سأعرّيها وأبطحها على بطنها ثم أمرّغ وجهي في مؤخّرتها التي يشتهيها كلّ سكّان حيّ البساتين.

كانت المسافة التي تفصلني عن السيّارة حوالى مئة متر. وحين أرى ليلى تفتح بابها بدون أن تنظر حواليها أو تتصرّف بما يوحي بأنّها تنتظر زوجها، أصبح واثقاً من أنّها وحدها. خشيت أن تنطلق بالسيّارة على الفور وتفلت منّي وتضيع هذه الفرصة النادرة، فأخذت أركض في اتّجاه السيّارة وأنا لا أحيد عنها ببصري. عندما تتّخذ ليلى مكانها خلف المقود أضاعف من سرعتي وأنا أشير بيدي لكي تفطن إليّ.

وحين أصبح على بعد خطوات قليلة منها أنتبه إلى أنّ محرّك السيّارة لم يشغّل بعد. كانت ليلى تمدّ رأسها صوب مرآة السيّارة

الداخليّة وكانت منهمكة في طلي شفتيها بأحمر الشفاه. أتوقّف على الفور. وحالما ألتفت حولي تقع عيناي على زوجها. ومن حسن الحظّ أنّه لم يرني. كان يسير ببطء. كان يحمل في إحدى يديه محفظة كبيرة، وكان يمسك بالأخرى جريدة يبدو أنّه اشتراها للتوّ. وبين حين وآخر يتوقّف ويتطلّع إليها قليلاً ثم يتابع سيره. بدا لي ببذلته الزرقاء ورباط عنقه الرمادي أكثر وسامة من العادة.

أتراجع قليلاً إلى الخلف وأبدأ في التطلّع إليه. حين يصل إلى السيّارة يجلس في المقعد الأمامي بعد أن يلقي بالمحفظة وبالجريدة على المقعد الخلفي. لا يقبّل ليلى. يبتسم لها ثم يميل عليها قليلاً ليضع يده على كتفها. تنطلق السيّارة. أظلّ مسمّرًا في مكاني أنظر إليها وهي تتقدّم ببطء إلى أن تختفي وسط سيل السيّارات.

- ٢٠ -

لم يكن إبراهيم في البيت لـمّا وصلت. أستغلّ انهماك يسرى في تحضير العشاء واستغراق وائل في مراجعة دروسه، فأدلف إلى غرفتي وأتمدّد على الفراش.

- ما لك مهموم؟.. كأنّك في جنازة..

تقول يسرى وهي تدفع الباب الموارب. كنت أفكّر في قضيّة نعيمة. لقد استطعت أن أنساها لـمّا كنت في مركز المدينة. ولكن ما إن عدت إلى حيّ البساتين ومررت بالقرب من شقّتها حتى استحوذت عليّ من جديد.

- في أيّ حاجة تفكّر؟

- في الهديّة التي سأشتريها إلى كاترين من المطار..

لا أدري لماذا قلت لها ذلك فأنا لم أكن أنوي أن أشتري شيئًا لكاترين. منذ فترة طويلة لا أفعل هذا، ليس لأنّ كاترين لا تحبّ الهدايا

وإنّما لانّ من الصعب أن تعجبها هديّة من تونس إن لم تخترها هي بنفسها.

ـ الهدايا للسيّاح في تونس بالأكداس.. اشتر لها مرآة.. أو طبقًا من النحاس أو من الفخّار.. أو سلسلة من الفضّة أو الذهب..

الفرنسيس يحبّون هذه الحاجات.... لو ذهبت إلى السوق في نهج جامع الزيتونة لوجدت كلّ ما تشتهي النفس والعين من التحف والهدايا.. تونس.. تبارك الله.. بلاد الخير والهدايا..

تتقدّم من النافذة وتقول وهي تنظر إلى الخارج:

ـ القحبة.. اليوم أيضًا وضعت القرآن.. وحرقت البخور..

لم أسمع ولم أشمّ شيئًا هذا الصباح، فقد غادرت البيت مبكرًا. أسألها مستغلاً تلك الفرصة التي تتيحها لي:

ـ متى قال لك إبراهيم إنّه سيبلّغ البوليس؟

ـ اليوم الذي رأى فيه الرجل في بيتها آخر مرّة..

إنّه يوم الجمعة على الأرجح. اليوم الذي خاض فيه مغامرته مع العاهرتين اللتين راودهما مع صديقه في مقهى الإنترناسيونال.

ـ هذا الرجل.. يمكن يكون أخاها كما تقول.. صحيح أنّها امرأة فاسدة.. ولكن يمكن تكون صادقة.

لا تقول شيئًا فشجّعني صمتها على المتابعة:

ـ أنا أميل إلى أنّه أخوها.. فلو لم يكن أخاها لما تركته يزورها جهارًا هكذا.. في النهار.. وأمام كلّ الناس.. ولما ظهر معها في الشبّاك..

يتواصل صمتها فيخيّل إليّ أنّها بدأت تقتنع، فأردف بشيء من الحماس:

ـ تعرفين.. الإخوة لا يشبهون أخواتهم دائمًا.. وحتى بين الإخوة أنفسهم أو بين الأخوات.. يمكن لا نجد أيّ شبه..

أين الشبه بين إبراهيم والبشير؟.. وانظري إلى أختك ليلى.. ثمّة من يقول إنّها لا تشبهك.. إلاّ في حاجات صغيرة..

تقول يسرى دون أن تنظر إليّ:

ـ ليس أخاها..

ـ الله أعلم..

تستدير إليّ وتقول وهي تتفرّس في وجهي:

ـ قلت لك ليس أخاها..

ـ كيف عرفت؟

ـ كيف عرفت؟.. البوليس أتى..

يصيبني الذهول. ليس لأنّهم استدعوا الشرطة وإنّما للسرعة التي فعلوا بها ذلك. لم أعد أتحمّل نظراتها فأستدير قليلاً في اتّجاه الباب لأتجنّبها.

ـ متى؟..

ـ اليوم.. قبل أن تصل بقليل..

وبعد أن تجلس على طرف السرير تضيف:

- اليوم .. لـمّا كنت أنظر بالصدفة إلى بيتها رأيت الرجل في الشبّاك.. أطل مرّة واحدة.. كان يغطّي رأسه ببرنيطة..

لكن عرفته ابن الكلب.. من حسن الحظ أنّ الوقت كان مناسبًا.. بعد ربع ساعة وصل إبراهيم.. كان وصّاني بأن أفتح عينيّ وأراقب بيت نعيمة.. وأن أعلمه بسرعة إذا رأيت الرجل.. وهذا ما وقع.. خرج كالبرق وذهب إلى مركز الشرطة.. وفي غمضة عين كان البوليس في بيت نعيمة.. طلبوا أوراق الرجل.. وظهر أنّها كذّابة.. الرجل ليس أخاها وإنّما واحدًا من أقاربها البعيدين..

- وماذا فعلوا لها؟

- وماذا تريد أن يفعلوا لقحبة مثلها؟.. حملوها..

- إلى أين؟

تقوّس حاجبيها استغرابًا وتقول:

- إلى الحبس..

- لكنّ الرجل قريبها..

- المرأة الشريفة لا تترك أيّ واحد يدخل بيتها إذا كانت وحدها.. إذا دخل عليها أبوها أو أخوها أو عمّها ما يهمّ.. أمّا ولد العمّ أو ولد الخال أو أيّ قريب آخر فهذا حرام.. حرام أن يقربها أو يكلّمها أو حتى يكون معها في البيت نفسه.. لأنّ ذلك الشيء.. سبحان الله.. يمكن أن يقع بين الأقارب أيضًا..

- لكنّ نعيمة ما تسكن وحدها.. ثمّة عجوز تسكن معها.. ويمكن تكون أمّها..

- أمّها!.. أنا صرت متأكّدة من أنّها ليست أمّها كما تقول.. ولا حتى عمّتها أو خالتها.. ما كانت في البيت لـمّا جاء البوليس..

لو كانت معها في البيت لعرفنا الحقيقة.. يمكن كانت قحبة مثلها في صغرها.. وتابت لما كبرت..

ألوذ بالصمت، فتضيف كما لو أنّها تذكّرني بأمر أساسي نسيته:

- هذا ديننا.. وهذه عاداتنا.. ما تتفرّج على التلفزة؟.. كلّ العلماء الذين يفتون في التلفزة.. في تونس.. وفي ليبيا..

وفي السعوديّة.. وفي كلّ بلاد العرب والمسلمين.. يقولون إنّه حرام أن تُدخل المرأة إلى بيتها رجلاً ليس أباها أو أخاها أو عمّها أو خالها.. لأنّ النفس.. سبحان الله.. أمّارة بالسوء..

يأتي وائل. وبعد أن يؤكّد لأمّه أنّه أنجز كلّ واجباته المدرسيّة يتمدّد بجانبي على السرير ويقول بحماس من يريد أن يبيّن أنّه هو أيضًا شهد مثل الكبار مشهد القبض على نعيمة وأنّ لديه ما يقوله لي:

- أنا كنت أمام بيتها لـمّا جاء البوليس.. وشفتها لما خرّجوها.. كانت تبكي..

تقول يسرى بتشفٍّ وهي تخرج من الغرفة:

- خلّيها تبكي طول عمرها..

يحدّق فيّ وائل. كانت نظراته تشي بأنّه فطن إلى أنّي لم أكن مرتاحًا.

- أنت حزين لأنّك ستغادر تونس غدًا؟

www.mlazna.com-RAYAHEEN

أحرّك رأسي. يلتصق بي ويقول بلهجة مواسية:

ـ سترجع العام القادم..

ـ سيأتي كلّ عام.. لازم يجيء في الصيف.. ومعه كاترين أيضًا.. ولازم يأتي بسيّارة فخمة كبيرة مثل سيّارة البشير..

ولا بدّ أن يبقى معنا شهرًا أو شهرين..

يقول إبراهيم بصوت عال. كان قد وصل لتوّه قادمًا من المقهى. يقترب من السرير ويتابع:

ـ ما ثمّة بلاد في كلّ هذه الدنيا أحلى من تونس في الصيف.. ما ثمّة في الدنيا بحر وشواطئ أحلى من بحر وشواطئ الحمّامات وسوسة وسيدي بوسعيد وقرطاج..

تقول يسرى التي كانت تتابع الحديث من المطبخ:

ـ ولا تنس المرسى وحلق الواد.. فريد الأطرش وما أدراك غنّى عن المرسى وحلق الواد في «بساط الريح»..

وفجأة يرتفع صوتها:

تونس أيا خضراء	يا حارقة الأكباد
غزلانك البيضاء	تصعب على الصيّاد
غزلانك في المرسى	وإلّا في حلق الواد
على الشطوط تعوم	ما تخاف صيد الميّ

يضحك إبراهيم ويقول ساخرًا من صوتها:

ـ سعدك.. يا أطرش..

كان مبتهجًا. يسألني وهو يداعب بطنه الذي بدا لي تحت قميصه الضيّق أكثر تكوّرًا من العادة:

ـ سمعت بالخبر؟

أقول متظاهرًا بعدم الاكتراث:

ـ أيّ خبر؟

ـ أيّ خبر؟.. ما سمعت بما وقع لنعيمة؟.. كلّ الناس في العمارة والحي يتحدّثون عن هذا..

يواصل متباهيًا:

ـ أنا الذي بلّغت البوليس.. كلّ الناس الذين قابلتهم في المقهى وفي الطريق كانوا فرحين بما وقع لها.. كلّهم شكروني على ما فعلت..

حين يلاحظ أنّي ظللت صامتًا ولم أتحمّس كثيرًا للخبر يقول باستغراب:

ـ ما لك صامت هكذا؟.. كأنّك حزين على ما حدث لهذه القحبة..

كانت تلك فرصة ملائمة لكي أقول له ما كان يجول في ذهني. إلّا أنّي لا أفعل. لم أشأ قبل سفري بساعات قليلة أن أقول له رأيي في المسألة خشية أن أؤلمه أو أخيّب ظنّه، أو يظنّ أنّي أدافع عن نعيمة. وعلى أيّ حال فإنّ رأيي لن يغيّر شيئًا فما حدث قد حدث. ثم إنّ هناك إجماعًا على ما يبدو على أنّ ما حصل لنعيمة أمر بديهي كان لا بدّ أن يقع.

-اللّه يجازيك كلّ خير.. على ما فعلت.. كلّ الجيران يدعون لك بالخير..

تقول يسرى وهي تقف أمام الباب. يتابع إبراهيم بلهجة حازمة:

-سوف لا نترك قحبة تفسد العمارة وكلّ الحي.. لازم تقف عند حدّها..

يركّز عليّ بصره فادرك أنّه يشبه البشير خلافًا لما ذكرت ليسرى منذ حين.

-لو رأيتها لـمّا فتحت الباب.. وشافت البوليس.. وجهها صار أصفر من الخوف.. سبحان اللّه.. البنو آدم كيف يصير لما يضعف..

تقول يسرى قبل أن تعود إلى المطبخ:

-تستاهل الفاجرة..

يهزّ إبراهيم رأسه موافقًا ثم يتبعها. بعد وقت قصير يخرج وائل بدوره. أنهض وأغلق الباب بهدوء. ثم أستلقي من جديد على الفراش.

-٢١-

الأشياء من حولي تغرق في العتمة. لا أشعل الضوء. ولا أترك الفراش. لم تكن لديّ أيّ رغبة في الحركة ولا في الكلام، ولا في الأكل ولا في رؤية أحد. كلّ ما كنت أريده أن أبقى مستلقيًا على الفراش وحيدًا وسط الظلام. لكنّ صوت إبراهيم يتناهى إلى سمعي معلنًا أنّ العشاء صار جاهزًا. إنّه العشاء الأخير كما تقول يسرى ولا بدّ من أن أكون معهم حول المائدة.

وهي حريصة على أن آكل ولو قليلاً من كلّ الأطباق التي قضت ساعات طويلة في طبخها من أجلي، إذ إنّها متأكّدة من أنّه لن تتاح لي فرصة تناولها إلاّ في الزيارة القادمة.

كانوا كلّهم جالسين حول الطاولة في انتظاري. وكلّ ما فيهم يوحي بأنّهم مبتهجون حقًّا بوجودي معهم. ألاحظ أنّ يسرى كحّلت عينيها وطلت شفتيها بأحمر شفاه خفيف وزجّجت حاجبيها. للمرّة

الأولى منذ أن تحجّبت أراها متبرّجة بهذا الشكل. إلاّ أنّ أكثر ما أثار انتباهي هو أنّها كانت ترتدي البلوزة التي أهديتها إيّاها لكن تحت فستان فضفاض يخفي كلّ ما تظهره البلوزة من زنديها وأعلى صدرها. ربّما أرادت أن تظهر لي، في نهاية آخر يوم أقضيه معهم، أنّها سعيدة بالهديّة؟ أمّا تبرّجها بهذه الطريقة فقد يعني أنّها لم تتغيّر رغم تحجّبها وأنّها لا تزال تعتني بمظهرها الخارجي.

حالما أجلس يسألني إبراهيم وهو يشير إلى يسرى التي تجلس قبالته:

ـ رأيت ما فعلت؟..

تستدير إليّ وتضحك. كان واضحًا من نظراتها أنّها تتوقّع أن أبدي ملاحظة عن تبرّجها الذي فاجأنا جميعًا. تراودني رغبة في أن أقول لها إنّها جميلة. لكنّني أكبح رغبتي. كانت فعلاً جميلة بل وخُيّل إليّ في لحظة ما أنّها أجمل من أختها ليلى.

ـ من مدّة ما رأيتها هكذا..

يتابع إبراهيم قبل أن ينحني في اتّجاهها ويمدّ يده ليلمس وجهها. تتراجع برأسها إلى الخلف وهي لا تزال تضحك. ثم تسأله وهي تسوّي حجابها:

ـ ألا يحقّ لي أن أتمكيج؟..

ـ تصلّين.. وتلبسين الحجاب.. وتتمكيجين بهذا الشكل؟

ـ آ.. وما المشكلة؟.. الماكياج حرام؟

يمسك وائل الذي كان يجلس إلى جوارها بطرف الحجاب ويقول:

ـ لماذا لا تنزعي الحجاب؟.. أحبّ أن أرى شعرك مع الماكياج الآن.. هيّا.. انزعي الحجاب..

تدفع يده بقوّة وتجرّ كرسيّها قليلاً لتبتعد عنه وتقول:

ـ شعري تراه كلّ يوم.. لـمّا نكون وحدنا.. والماكياج لا يزيد فيه أيّ شيء..

يتحمّس إبراهيم فيمدّ يده من جديد إلى رأسها ويقول:

ـ وائل معه حقّ.. انزعي الحجاب.. أرجوك.. انزعيه للحظة قصيرة.. نحبّ أن نرى شعرك مع الماكياج.. نحبّ أن نراك بدون حجاب ولو لوقت قصير..

يلحّان عليها طويلاً لكنّها لا تستجيب لطلبهما. لا يستغرق تناول العشاء وقتًا طويلاً خلافًا لما كنت أتوقّع. وعندما ننتهي من ذلك نجلس على الكنبة لشرب الشاي. كانت فكرة رؤية يسرى متبرّجة بهذا الشكل وبدون حجاب قد راقت لي أنا أيضًا.

وفيما كنت أتخيّل الصورة التي ستكون عليها لو فعلت ذلك يقول إبراهيم بصوت واطئ كأنّه يخاطب نفسه:

ـ القحبة حقرتنا..

أدرك على الفور أنّه يتحدّث عن نعيمة. تهزّ يسرى رأسها للتأكيد على كلامه ثم تصوّب نظرها إليّ. يضيف إبراهيم وقد تغيّرت نبرة صوته:

www.mlazna.com-RAYAHEEN

ـ هل كانت تتصوَّر أنّنا سنتركها تحوّل بيتها إلى بورديل؟

أتساءل عمّا إذا كانا قد لاحظا أنّني لم أتحمَّس للخوض في موضوع نعيمة عندما علمت بقدوم الشرطة، فارادا بإثارته من جديد أن يدفعاني إلى قول شيء ما. إلاّ أنّي لا أنبس بكلمة. يسود الصمت للحظة طويلة فيعتريني قليل من الاضطراب والتوتّر.

يسأل وائل الذي كان يتابع قصّة نعيمة بشغف واضح ولا يريد أن يفوته منها أيّ شيء:

ـ ستبقى مدّة طويلة في الحبس؟

ـ ثلاث سنين على الأقلّ..

يجيبه إبراهيم على الفور قبل أن يردف بلهجة رصينة:

ـ ربّي سبحانه وتعالى حرّم الزنى ونهانا عنه.. والحاكم لا يتساهل مع الزنى..

يقرّب وائل رأسه منّي ويسألني بصوت منخفض:

ـ ما معنى الزنى؟

تأمره يسرى بأن يغلق فاه على الفور، وألاّ ينطق أبداً بهذه الكلمة مرّة أخرى. أما إبراهيم فيقول بلهجة من ورّط نفسه في أمر مزعج وأراد أن يتخلّص منه بأقصى سرعة:

ـ الزنى هو الفاحشة..

تظلّ عينا وائل مركّزتين عليه فيضيف موضحاً:

ـ الزنى هو أن يعاشر الرجل المرأة في الحرام..

تقول يسرى وهي تستدير لتتحاشى نظراتي:

ـ الله يسترنا.. ويستر أمّة محمّد أجمعين..

أتخيَّل ردّة فعلها لو قلت لها إنّ زوجها هذا الذي تفتخر به لأنّه استدعى الشرطة لوضع حدّ لسلوك نعيمة المريب قد خانها قبل يومين مع قحبة شوارع.

أقضي السهرة كلّها معهم في الصالون. لم تكن لديّ أيّ رغبة في ذلك. غير أنّي لا أجد ما يكفي من الجرأة لكي أتركهم وأنحبس في غرفتي في آخر ليلة لي في تونس. أشاهد معهم منوّعة غنائيّة في التلفزة ثم فيلماً مصريّاً مملاً. ولا أغادر الصالون إلاّ عندما يقوم إبراهيم وهو يتثاءب معلناً بذلك عن نهاية السهرة.

كنت متعباً. ومع ذلك يجافيني النوم. لا أفلح في طرد قضيّة نعيمة من ذهني. وفي عمق الليل وبينما كان الجميع يغطّ في النوم أترك السرير دون أن أشعل الضوء. أفتح النافذة وأنحني متطلّعاً إلى الأسفل. كانت نافذة نعيمة مغلقة. أتذكّر الطفل الذي يعيش معها. لم يأت على ذكره أحد كأنّه لم يكن موجوداً. هل كان في البيت لمّا أتى البوليس؟ ماذا حدث له؟

وأين هو الآن؟..

أعود إلى الفراش. ثم أشعل الضوء وأشرع في تأمّل رسوم وائل المعلّقة على الجدار باهتمام كبير، على الرغم من أنّني فعلت ذلك عدّة مرّات في السابق. إنّها أفضل طريقة للتغلّب على الهواجس التي تشوّش ذهني.. فجأة أفتح عينيّ وأمدّ رأسي وأجول بنظري في الغرفة.

بعد برهة أنتبه إلى صوت المؤذّن وهو يؤذّن لصلاة الفجر. عندئذ أدرك أنّ النوم أخذني بينما كنت مستغرقًا في تأمّل الرسوم.

ينهضون كلّهم لتوديعي. تهديني يسرى علبة توابل وقارورة زيت زيتون. ثم توصيني بأن أنتبه جيّدًا في المرّة القادمة إلى المقاس حين أشتري ثيابًا لوائل. ولا يفوتها أن تذكّرني بأنّها لا تزال تحلم بأن أهديها ذات يوم معطفًا كذلك الذي أرتني إيّاه في التلفزيون، بالرغم من أنّها تعرف أنّ هذا النوع من المعاطف باهظ الثمن حتى في أوروبا.

أما إبراهيم فهو ينبّهني مرّة أخرى إلى ضرورة القدوم في الصيف في الزيارة القادمة، قبل أن يقول لي إنّه يتمنّى أن أجلب له من فرنسا هاتفًا نقّالاً أكثر تطوّرًا من جهازه الحالي القديم الذي صار مادّة للتندّر من قبل أصدقائه وزملائه الذين يمتلكون كلّهم هواتف نقّالة من أحدث طراز. وعند المغادرة يلحّ عليّ أن ينزل معي إلى الشارع ليساعدني على حمل الحقيبة ولينتظر معي سيّارة التاكسي التي ستحملني إلى المطار. إلاّ أنّي أصرّ على أن يبقى في البيت.

لا أحد في حديقة العمارات أو في الممرّ الذي يشقّها. كلّ الحيّ كان غارقًا في النوم. السماء شديدة الصفاء. وهواء الفجر نقيّ منعش تتخلّله رائحة عشب نديّ. أحسّ وأنا أستنشقه بعمق بنشاط يسري في كامل جسدي. أخذت الكآبة الخفيفة التي انتابتني البارحة تتلاشى ليحلّ محلّها هدوء مريح.

أضع الحقيبة على الرصيف. وأقف وسط الشارع الخالي في انتظار سيّارة تاكسي. مركز الشرطة كعادته مفتوح.

لكن لا أحد في مدخله. أتطلّع إلى لوح الإعلانات الذي يقوم أمامه. الملصق الذي شاهدته قبل أيّام لا يزال على اللوح.

أحدّق للحظة في صورة الطفل الجميل الذي يمسك بباقة الياسمين، وأقرأ بتمهّل ما كُتب تحتها: ابتسم فأنت في تونس.

ثم أشيح عنها بوجهي. أرفع رأسي إلى السماء وأشرع في تأمّل نجمة صغيرة لا تزال تلتمع وسط ضوء الفجر الذي بدأ يغزو الفضاء.

www.mlazna.com
^RAYAHEEN^